الفَخْر والرَّصَاص

ريمُو آلْ

رواية

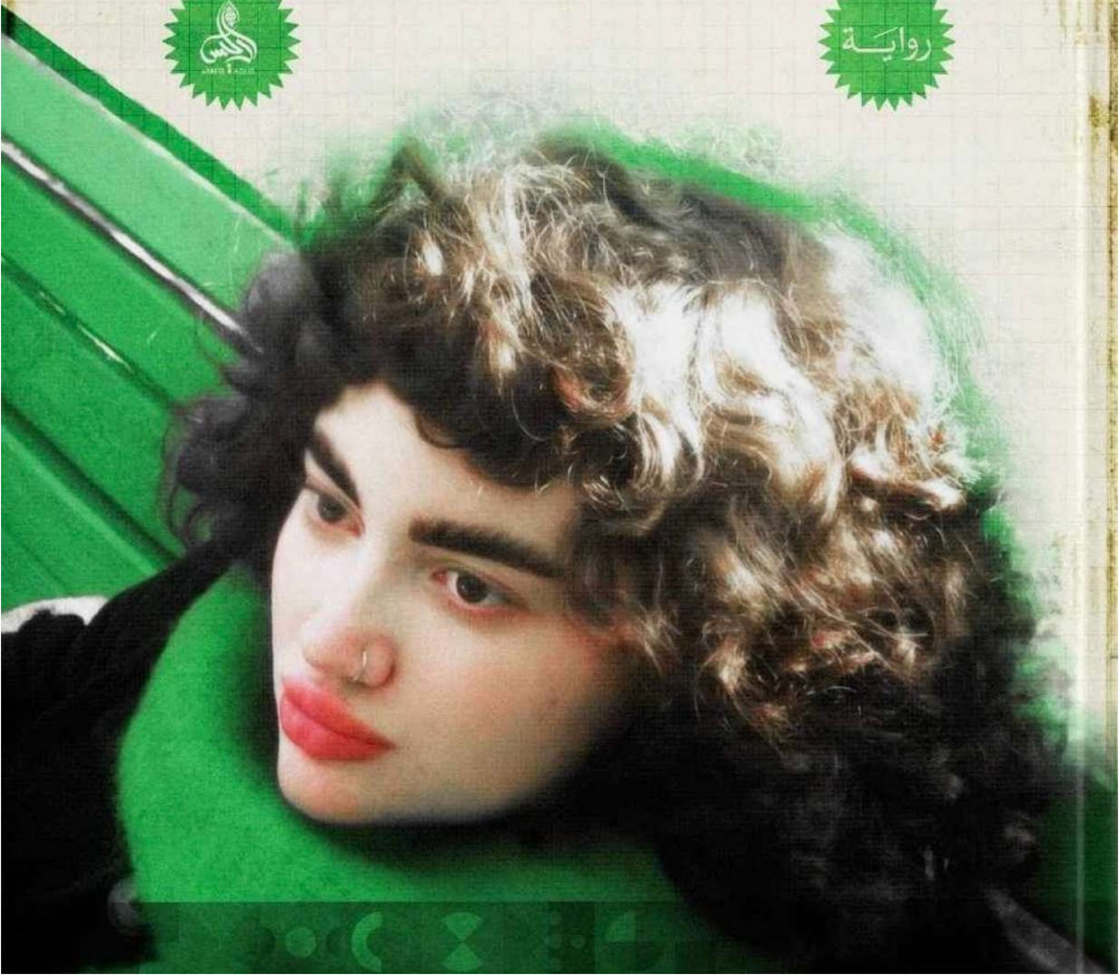

الفخـر والرصـاص

الطبعة الأولى: 1446 هـ/ 2024 م
رقم الإيداع ISBN: 978-9969-543-25-4
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2024

اسم العمل: الفخـر والرصـاص
اسم المؤلف: ريمــو آل
إخراج فني وتدقيق: رحمـة ربيعـي
تصميم الغلاف: أحمـد سـاخر

الناشر: أدليس بلّزمة للنشر والتوزيع
الفيسبوك: أدليس للنشر والترجمة والتصميم
البريد الإلكتروني: adlisedition@outlook.fr
الهاتف: 0777892744/0672983254

جميع حقوق النشـــر الورقي والإلكتروني والمرئي والمســموع محفوظة للناشـر وغير مســموح بتداول هذا الكتـــاب بالقــص والنســخ أو التعــديل إلا بــإذن من الناشر.

ريمـو آل

الفخـر والرصـاص

الطبعـة الأولـى
2024

إن المحبة والموت وحدهما يغيران كل شيء

خليل جبران

القلب نفسه تستهدفه الرصاصة والوردة

حمزاتوف رسول

إنّ ما نحسبه مدعاة للفخر يقتلنا دائماً

ريمو آل

الجزء الأول

سفينة الحمقى

الفصــل 1

كانت معزوفة التشيلو قد جعّدت قلبه ككيس ملتهب، ومن الجلي أن ترى شعاع الشمس المتشنج يتراكم على ما تناثر على وجهه من نمش خفيف بخفة نمش زنابق النجوم، وأيضا على شعره المجعد الكث، قال في نفسه بضجر:

"صباح بليد! إن الشمس عشوائية في حثنا على البقاء يقظة"

وسرعان ما غطى وجهه بذراعه، ومد ذراعه الأخرى ليطفأ الفونوغراف قبل أن تنتهي الأسطوانة الأولى وتسقط التالية على البلاتين (خمن أنها قد تكون أسطوانة لأندري ريو، مقطوعة الفالس الثاني لديمتري كانت كفيلة بالقضاء عليه)

كان ممددا على السرير الرخو يجهد نفسه في فتح عينيه بلا جدوى، كأن عليهما شيء رزين بالغ الثقل كخطيئة من رصاص، ثم ما الذي يدفعه إلى الجنون هكذا؟

خيل إليه أنه يرى عزرائيل يضع بركبته على وجهه، إنما كانت مروحية السقف تمايل وكذلك الزينة تترنح ذهابا وجيئة من تيجان أعمدة الرخام الأبيض.

استمر إحساسه المرير هذا وشعوره بالخزي يوما كاملا بعد حفل ميلاده الواحد والعشرين، كانت الغرفة تعبق بروائح المطاط والفانيلا والغبار وعلب الهدايا، فإن عائلته كطيور اللقلق وأزهار الهندباء مبعثرون في كل مكان، لذا فإنها كانت الحفلة الأكبر في المدينة، والأصغر في قلبه.

إن حتمية موت كل ما يولد، أمر يبعث على القلق: لقد أخذ يفكر بجدية في الموت.

سخافة !

يستحيل لهذين العينين المضمختين بالربيع أن يكون آخر ما تراهما هو السقف، فإن الموت ذات سحنات مملة، يقبع معظمها تحت مربعات البلاط ويؤول إلى ظلال خزانة خشب الأبنوس المطوّع المطلي بالورنيش، ويتخفى بعضها خلف منمنمة أسطول بابا عروج المضاءة بلون وميض الشمس.

قلَّب بعينين محزونتين غرفته المليئة بالهدايا التي كانت في رأيه بلا أي معنى، وراح يتفحصها بقدمه كمن يبحث وسط كومة من الخردة، أطال النظر إليها شاردا حتى تلاشت الصورة أمامه، ولم يبق سوى الضوء اللاذع ونبض ساعة الكوارتز على الجدار، عندئذ، كان قد استرعى انتباهه شيء لماع، كانت دمية ماتريوشكا تحت قدمه تماما، وتذكر بالضبط ابتسامة عمه عبر شفتيه الغليظتين حين وضع في يده الهدية غير المغلفة:

"هذه الدمية؟ من المستحيل أن تجد واحدة مثلها حتى في موسكو وسرغيايف بوساد"

لم يعد الهواء بتلك الكثافة ليحرك مصاريع النوافذ أو حتى ستائر الشرفة، لكنه بشكل ما أسقط قارورة عطر "قوتشي ذا ألكيميست 1921" مليئة بالتراب، استعملها كإصيص لزهرة جيرانيوم صغيرة، نظر إلى فرجات الستار التي انتفضت وتهدلت ثم إلى ألياف جذور زهرة الجيرانيوم المتداخلة، تساءل

سؤالا واحدا فيما كان يقسم الماتريوشكا نصفين ليجد أخرى أصغر حجما في كل مرة:

"ماذا يحتوي جسدي العاري غير الفوضى العارمة في معرفة من أكون؟"

لطالما كانت فكرة عيد الميلاد ترهقه، ليست غلطته تماما أنه قد كبر عاما آخر بعد العشرين، وتمدد جلده كساق البامبو، ونما له شاربان كالصوف الأسود الخشن، ولحية كزغب الخوخ، كما أنه لا يفعل شيئا عادة، ولم ينتبه لكل سنين عمره التي انقضت، وكان من الذين يسهل على المرء تذكر سيماهم:

طويل القامة، نحيف بالشكل الذي يجعل ملابسه فضفاضة دائما، له وجه خيولي بارز الفك، وأنف معقوف، أما لون عينيه فقد كان أقرب للخضرة من الزرقة، بالإضافة إلى كونه تعيسا كل الوقت، كأنما كان يعيش كآبة تتخللها فترات من الحياة أحيانا، كان شاردا دائما، ينتابه قلق معطل، منتهيا، كجمرات تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وليس العار أو الخزي ما كان يقتله، إنما الخوف، كان خائفا من تفاصيل الحياة المرهقة التي لا يخرج المرء معافا منها إذا ما استسلم لها، ولم يكن خائفا من التعرض للشمس حين ترتفع قليلا كل صيف، ولم يكن قلقا من أن يفقد جلده الذاكرة وأن لا يعود لونه كما كان، ولعله لم يكن خائفا من أن يضيع موعدا مع إحداهن فتتركه لفظاعة الليل ليأكله الأرق، ولتبصقه أبواب المواخير ويغرق في أقداح الأنخاب البائسة، إنما كان خوفا نزقا، لهب مجنون يمضغ حفنة أعواد جافة إلى الأبد.

كان خائفا من أن لا يجد نشوة المعنى في شيء، فكل محاولاته في تحصيل قيمة سامية لحياته التعيسة قد فشلت فشلا ذريعا، وكذا تجديد البحث عن سبب وضيع للعيش كل يوم قد كان وصفه الدقيق للموت، وبالطبع، وبدون أدنى شك، فإن ذلك المعنى الجوهري الذي وجد قبلنا لا يشبه أبدا هذا المعنى الذي نوجده نحن لأنفسنا، إننا نمارس العلوم والأعمال، ونغرق في ذلك الكم الهائل من النشاطات البشرية المتناقضة والمضطربة، إن هذا بالضبط كيف نعيش، ولكن ما الذي نعيش من أجله؟

قد نلتمس في الأمر فلسفة من نوع ما، كالايكيغاي على سبيل المثال، فلسفة طفولية لا تنضج، ولكن هيهات، فما كان بوسعه أن يجد أي حقيقة ليؤمن بها.

الحقائق؟ ستضل مشوهة ممحية دائما، يتعذر تصديقها، ولعل الشكل الفلسفي لهذا العالم هو بلا شك، تفاحة مقضومة.

كانت الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحا حين ارتمى على السرير ليمارس لعبته المفضلة مجددا، أمعن النظر إلى سقف الغرفة العاري من اللون، من الصعب والنادر أن يكون آخر ما يراه الإنسان شيئا جميلا كالشطآن البعيدة والأزهار البحرية، تموت حين يقبل النسيم بشرتك على الشاطئ ويحقن الرمل في عينيك وكذا الأصداف والسفن والموج والشمس المتعبة وجثة البحار وشراعه المثقوب.

"ومن منا لا يصبح بحارا في برك الرصيف؟"

لكن أخشى أن معظم الذين ماتوا كان آخر ما رأوه هو سقف من القرميد أو الخشب، وكان يتساءل أثناء هذا كما تساءل أورلاندو: "كم عدد الأسقف المعلقة التي سأراها قبل أن أموت يا ترى؟"

كان قلقا من أن يموت بلا إجابات، وفي تلك اللحظة الشاذة، قفزت فكرة مطاطية عن الموت إلى رأسه، وفكر فيه بالطريقة التالية:

"إن عكس الحياة ليس الموت، إنما هو الخوف"

قال في نفسه "في آخر المطاف حتمية كون الإنسان فردانيا لا يمكن أن تشده لأن يكون وحيدا"

ومن هنا، في هذا الصباح الملتبس العجيب، بدأ موعده مع العالم، واحد من تلك المواعيد التي يحسب للمرء أنها ستجعله خالدا في الحكمة للأبد، ليدرك في الأخير أن الحياة ليست إلا كل الأشياء التي بدت له منذ البداية، مجتمعة.

الحادية عشرة صباحا، المحطة خاوية والكراسي الحديدية ملتهبة ولنلقي اللوم على الشمس، فقد تحتم عليه الانتظار واقفا لساعة إلا ربع تقريبا في البهو الفسيح المغطى بقبة زجاجية عملاقة تسمح للضوء بالانسياب إلى الداخل مكونة لوحات ضوئية متغيرة على الأرضية الرخامية الملونة، وعلى الكراسي مكسرة المساند.

ولنتعامل مع قراره الذي اتّخذه ها هنا بشكل مرتب، فإنه ذات صباح صيفي رأى أنه من السخف ألا يسافر المرء عبر القطار مرة في حياته، وألا

يرى بنفسه كل تلك الإسطاطيقيات الرائعة والرديئة على حد سواء، لكن كل ذلك تهاوى حين وجد أنه لم يعد يرغب في شيء (إطلاقا) ولعل كآبته كانت تغنيه عن الحاجة للنوافذ فالمنظر معتاد والطريق ممل نحو المحطة التالية، عشب شوكي مصفر وسماء زرقاء ملكية بينهما خط حصاد، ثم ها هو الجمع الغفير يصعد على عجل إلى القطار، هرج ومرج، يحملون الحقائب والأولاد وأنفسهم وكأنهم مرغمون على العيش، كالمد والجزر يصطفون، ثم يجلسون مثنى مثنى، أو متقابلين، أو متعانقين حتى في مثل هذا الجو الرطب الحار، إلا هو كان وحيدا، ومنكمشا، لا يحمل شيئا سوى كتاب قصائد جوزف حرب ودمية ماتريوشكا خشبية.

كان مرتبكا، يحك بقبضة يديه عينيه الغائرتين، يحاول التشجر، ينبغي عليه أن يتحاشى كمية الوجوه المحدقة حوله، والناس الكثر، وصراخ الأطفال، وإن دخلت القاطرة تحت الأرض في دهليز مظلم وسقطت العتمة لبرهة شعر بدوار أشبه بدوار البحر، إذ أن العربات تمايلت قليلا عن مسارها، فشعر بالذعر، واندفع مرتعبا نحو الحمامات، وأخذ يصطدم بالناس والكراسي كما ترتطم الكريات ببعضها على طاولة البليياردو.

وضع صدغه على باب الحمام، يلتقط أنفاسا كسولة، كاد يذيب رئتيه، لا يرى إلا الضوء الهزيل المنبثق من خلال صدع في الباب، وعلى حين غرة صم عنه الضجيج، ولم يعد في مقدوره سماع شيء سوى صفير أذنيه، وأخذ يقتله السؤال والتفكير:

"كيف سأتعامل مع كل هذه الفوضى؟ كيف سأجدني خلال هذا التيه؟"

ولكن لا بد من أن يأتي الوقت الذي يتهاوى فيه الجدار الذي صنعه حول نفسه، وفي الغالب يحتاج الإنسان إنسانا آخرا، ويجد في نفسه القليل من الناس، وفي الناس بعضا منه، لقد بدا الأمر أكثر جدية حينها، ربما كان نخا، نخا في جسد حلم لامع.

وعندئذ أجفله صوت دق الباب فراح متمايلا كقارب مخمور، يقول الرجل الذي تبعه خلال العربات:

"افتح الباب إن معظم الصنابير معطلة، ربما تحتاج الماء"

قال في نفسه:

"ولم يتبعني رجل ما؟ لعله الفضول ولعلها يد العون"

أجاب بصوت مرتعش:

"إنني لا أرى شيئاً، إنه لا يفتح"

"ابتعد عن الباب سأخلعه عن مفصله"

وبضربة واحدة أسقط الرجل جزءا كبيرا من الباب، وخرج يتنفس من خلال فمه تنفسا متسارعا، وقد رمى بيده إلى ياقة قميصه يفتح الأزرار،

وكان وجهه يتخبط بين الجدران، وحين ضعفت قدماه، وتراخى جسده، ارتمى بين ذراعي الرجل مغمى عليه.

كان الرجل ضخم البنية، حليق الذقن، وكان جلده جافا حنطيا، وشعره بلون الحياد، رماديا كلون الأوراق بعد النار، يرتدي قميصا بأزرار حتى صدر ضامر، وساعة فضية بأرقام رومانية رخيصة من عام ستين، ونظارات خشنة الإطار شفافة الزجاج، قد جلست بمحاذاته امرأة طويلة القامة قصيرة الشعر، تلبس تنورة لصيقة بفخذيها تبرز وشما شبيها بأقنعة الدراما اليونانية، تعلق على رقبتها كاميرا فوجي قديمة الطراز.

حينئذ، بدأ في فتح عينيه، واستنشق المكان المضبب والناس مجددا، ثم استقام في جلسة لا اعوجاج فيها، كان الرجل يحط بيده على كتفه، يمهله وقتا للتنفس:

"حاول أن تنهض، قبل أن يتوقف القطار في المحطة التالية، وتقرع الأجراس وتحل الجلبة واللغط مجددا"

ثم أضاف:

"يمكنك البقاء معنا إن شئت"

قال:

"إنني لا أمانع أن أجلس معكم يا سيدي، إنما لا أريد أن أكون ثقيلا"

قاطعه معرفا عن نفسه:

"بيدرو... اسمي بيدرو"

ثم مد يده ليعطيه قطعة من جبنة الفيتا بالرند ملفوفة في خبز مدور هش، وثلاث حبات زيتون أخضر على طبق بحجم راحة اليد، وقارورة مياه بلاستيكية، أخذها عنه، هز رأسه محاولا التخلص من التيبس الذي أصاب عنقه.

"في أي محطة ستنزل؟" سأله

"حين يلبسني الملل، أو حين لا تبقى هناك المزيد من السكك لأعبرها، ألا يحق للمرء أن يتوه؟"

"بربك! هناك دائما المزيد من السكك لنعبرها"

راح يومئ برأسه ويلوك حبة زيتون، راشقا نظراته نحو وشم الشابة بجانبه، وإذ ضبطه بيدرو متلصصا، سخر منه:

"هل تعجبك؟"

أجاب بلكنة جامدة لا تعبر عن شيء:

"لا"

ثم أردف سائلا:

"هل هي زوجتك؟"

"زوجتي؟ ألا ترى؟ إنها مجنونة، وعلاوة على ذلك، مورية، أنظر ألا تخيفك؟ إنها تخيفني، وكأنها فزاعة قش، وأنا عصفور كناري"

"جنون؟ وما الجنون؟"

راح بيدرو يعدل من جلسته، ويزيح النظارات من على وجهه، ويضع ساقا فوق ساق:

"الجنون؟ هو أن تتخلى النساء عن رغبة أثدائها في إرضاع الصبيان، لتفيض في ما يفعله الرجال"

حملق فيها طويلا، وكأنه لم ير فيها من علامات الجنون الذي يعرفه شيئا، وكانت هي بدورها تنظر إليه تارة، ثم تنظر إلى نافذة القطار تارة أخرى، بلا رغبة، بلا تعبير، نظرات جافة ركيكة، وكأن كلاهما، وعلى ما يبدو غير مصر على إكمال هذا الجدال العقيم، ومن ثم تحل المبالاة، وتستفيق رغبته في معرفة الأشياء، فأخذ يجاري نفسه، وسأل مجددا بعد برهة:

"وهي، كيف أصابها الجنون؟"

"ديهيا؟ هذه؟" قهقه، وأشار بيده إلى الكاميرا المتدلية على صدرها:

"إنها الخطيئة الكبرى، إنه الجنون نفسه، وإن لمدينتنا حصانة ضد الجنون، إن ممارسة النساء للفن خطيئة تبعث على موسم الجفاف"

بدت الإجابة غير مقنعة وغير مألوفة البتة، لم يكترث لمعرفة المزيد، لذا فضل أن يبقى صامتا، محايدا كشمس منتصف النهار، تراجع إلى داخله

وتمدد كالحلزون، لطالما كان تلميذا للهوامش، لا أسماء، لا صفات، ولا أفكار سابقة غير التي كونها عن نفسه خلال المرآة وعن الضوء والضوضاء والنسيم عبر قضبان الشرفة، عاريا من الجواب، كان إنسانا فسيحا ومحدودا، كشارع، كنقطة أفق، كالمسافة بين عيوننا والشمس.

يتنصل من المكان والزمان، بقي مستسلما لمنظر نافذته الحزين، لا شيء يغريه البتة، لا شيء، وحدها الذكرى تحرك النسغ في عروق صلصاله، كأنها تثبت له أنه ما زال على قيد الحياة، قد يكون المرء عبارة عن أيام حياته السابقة، هذه كفكرة لا يمكن دحضها قد تكون كفيلة بالقضاء عليه تماما، فكل ما يحمله في نفسه يبعث على القيء.

"يا ترى ما أول ذكريات حياتي؟" يسأل نفسه

"وأين تذهب الذكرى بعد أن يمتصها النسيان؟"

إنه يصر على الغوص في ذاكرته كما يفعل البلل بإسفنجة، عندما يمسه الضجر، أحيانا وكثيرا، يظن، ولربما تشفيه الذكرى، لكنها فكرة مبتذلة، كمن ينكأ جراحه ليميت الألم.

وكنوع من الذكريات تلك الذكرى المبهمة، المغمغمة، التي لا يدري المرء إن كانت حقيقة أم اختلاقًا من العقل، كان يسترجع واحدة منها:

كان طفلا حين رسم إنسانا لأول مرة، رسم دائرة هي الرأس وخطا هو الجذع، وأربعة خطوط مائلة متباينة الطول تلك هي الأطراف، وأثناء ذلك، كان والده قد دخل للتو، وقف عند رأسه كالعمود، وسأله باستهزاء:

"أهذه شجرة؟"

"لا، هذا أنا"

"اجمع أقلامك ولملم نفسك، أمك هجرتنا ولن تعود، يجب أن تعول على نفسك وتكون رجلا"

"أكون رجلا؟" يسأل

كان يبكي، يعرفها، شهقة الخيبة، وكيف للمرء أن يكون رجلا ؟ كان صغيرا، يمسح بأصابعه عينيه ملحا، يصفعه الأب:

"نعم بأن تتوقف عن البكاء كالفتيات"

إذا لم يبكِ الرجل، إذا، أين يخبأ دموعه؟

ربما جواب واحد كان كفيلا بالقضاء على كل أسئلته، لقد رأى لخيبته ظلا، أليست ذكرى؟ أهي حلم؟ ليس للخيبات ظل سوى في الأحلام، لكنها ذكرى متشعبة، فإن بعضا منها يبدو حقيقيا للغاية، كمنظر الإسفلت يتبلل تدريجيا بزخات المطر ليلتها، وصورة القمر حين رسم نهدين مضيئين على برك الرصيف، لا يمكن أبدا للعقل أن يختلق ذكرى كهذه، فهي حقيقية للغاية.

"ولكن لماذا نكون كما لا نريد؟ إذا كان الرجل شيئا نصيره، فلماذا تمنع النساء من ممارسة ذلك؟"

حسنا، إنه لم يتوقف عن سؤال نفسه قط عن كيف يصير الإنسان رجلا، وكيف يصير الإنسان امرأة، لكنه سؤال لم يتجاوز أسوار نفسه، وبدت له الإجابات في حالات دفاع، لن يقدر على فك عقدتها أبدا، وإن كانت بسيطة كعقدة أنشوطة.

بعد أسابيع قليلة نقل إلى مدرسة داخلية، بالطبع، كان له منزل قد رحل عنه، ولكن ما من عنوان يعود إليه، فوالده (البلوتوقراطي الوصولي) عاد إلى الشمال، حيث استمر في تجارة القماش والعطور وتماثيل الجبس المقلدة وقطع الأنتيكة، وتزوج من جديد، بعدما باع كل ما يملكه في الجزيرة، لكن عائلته لم تبخل عليه قط، بل أغدقت عليه بالمال الكثير، فلم يكن أبدا مضطرا للعمل، ولا لمكابدة تعقيدات المدن والناس، وكان خياره الوحيد في الحياة هو التسكع عند شواطئ البحر، أو تسلق الشرفات العالية، أو مشاهدة الأسقف والاستماع إلى الموسيقى.

كان في عمر الخامسة عشر حين دخل عليه عمه وفي يده ظرف مفضوض:

"والدك مات البارحة"

"كيف ذلك؟ هل يموت الإنسان في الإنسان؟ هل مات فيك أيضا؟ لأنني أحمل جثته سنين طويلة "

يرتجل ابتسامة طائشة

يقول عمه ساخطا: "أنت فظيع في مواساة نفسك والناس"

كانت الغصة في حلقه، لكنه لن يبكي، الرجال لا يبكون، الدموع موجودة في كل شبر من جسده ما عدا عيناه، لكنه لن يبكي:

"الألم؟ لا بد منه"

ولربما كانت هذه الذكرى التي علمته أن الحب ليس واجبا، أو حقا، ليس إلزاما حتى بين الصبيان وآبائهم.

ما زال القطار يسير ليلا، وعلى ما يبدو أخذه التفكير إلى الحلم، وفي لحظة ما أحس بهمس قريب يوقظه:

"في أي محطة ستنزل؟" سأله بيدرو

مسح النعاس عن عينيه:

"أنا مغرم بالطرق، لا تثير إعجابي المحطات"

"سننزل في المحطة التالية... وإنني أقترح أن تذهب معي!"

"إلى أين؟" قال متلعثما

"إلى المنفى"

"المنفى!" تعجب

"أرض قريبة، تنفى إليها النساء اللواتي أصابهن جنون الثورة" أشار إلى ديهيا التي كانت نائمة:

"مثلها.. اللواتي يمارسن الثورة عبر اللون والناي والصورة"

يتثاءب:

"إنما..."

قاطعه بيدرو بصوت منخفض:

"لا تفكر كثيرا، نحن نحتاجك... نحتاج رجالا آخرين، نحتاج قوة أخرى، يجب أن نمنع تدفق هذه العدوى... فهمت علي؟ آه صحيح.. من الآن أنت المسؤول عنها، إنها مجنونة، وهذا ما نفعله، نقنعهن بذلك، هل تفهم؟ إننا نورث هذه المهنة، ستكون لك القوة الآن، أنت رجل.. فما رأيك؟ لا لا هيا سننزل، لا تفكر كثيرا"

لماذا يقدم على فعل ذلك؟ لأنه: لم لا؟

شتم نفسه:

"مالي أنا المولع بتفاصيل رتيبة؟ ألتصق بالأشياء كقرادة!

سأخوض في هذا، لأرى كيف يكون الرجال رجالا، وكيف تكون النساء نساءً... كيف يكون الإنسان إنسانا؟"

كانت تلك الشتيمة الأخيرة التي وجهها لنفسه، بعدها جلجلت صافرة القطار ممزقة صمته الأخير قبل الهبوط...

الفصل 2

الهواء نقي ولذيذ، الشمس لا زالت تحرق نفسها بين سحابتين خفيفتين ككل يوم صيف، هنا حيث العزلة واللون الكثيف وصوت نقر الأحذية الخشبية العتيق للنساء والفتيات.

مدينة مولودة على الهامش، فوضى عارمة تخنقها التفاصيل والأشكال، ولربما كانت ستبدو أكثر تناسقا من فوق جبل شاهق، مدينة لم تخلق بعد على خرائط العامة من الناس، حيث أن الاسم الوحيد الذي تسمى به هو "المنفى".

شدته كلمات بيكاسو المرسومة عند مدخل الحديقة الملهوجة التي تتوسطها نافورة يشبه الجزء العلوي منها نسخة رخيصة من مانيكن بيس المتبول:

"الفن فوضى تأخذ شكلا"

التفتت ديهيا إليه بينما كانت تريه قرص زهرة اللوتس:

"الدائرة شكل كمالي، إذا غابت المثالية فيها انعدمت هي نفسها"

كان منشغلا بنتف زهرة شقائق النعمان:

"لا تحتاج الزهور قبور الأنبياء لتكون"

"ويلك! شقائق النعمان هشة وهزيلة ولا يقترب منها إنسان يحترم نفسه.. إلا من بعيد"

يعيدها إلى التربة مرتجفا:

"أردت أن أرسم صورة قريبة عنها"

"كفاك سخفا وكيف لها أن تنمو مجددا وقد صارت أشلاء؟ إذا أردت رؤية الزهرة عن قرب سر نحوها وانبطح أرضا!"

"إن هذا ليس بالأمر الجلل على أي حال" يقول منزعجا

تدفع في وجهه وردة بيضاء بحجم قبضة اليد:

"ما اللون الذي تفضله في الوردة؟"

يخمن قليلا، ثم يجيب:

"ربما بيضاء كهذه"

تنظر إليه بسخرية:

"الأبيض ليس لونا"

"ها؟ ما هو إذا"

"هو انعدام اللون، إن الأشياء بيضاء لأنها تفتقر إلى اللون ليس إلا"

غمر ساقيه في بركة ماء ضحلة، وما إن يهز قدميه قليلا حتى تتولد دوائر متداخلة على صفحة الماء الضيقة، معيدا ذلك بين الفينة والأخرى، وكان النهار طويلا جدا يومها، وكأن الشمس قد أرهقت نفسها في احتلال كل ظلال الأرض، أو أنها قد غفلت عن موعد غروبها، لكن لونا حنونا كان ينبعث من الأفق، ويلمس الأرض وما عليها مسا خفيفا، ويجعل الرؤوس

الشقراء تبدو حمراء بلون التوت، والسوداء لامعة قليلا، وأخذ شكل السماء يغريه ليستلقي على العشب الندي، وكأنه يتمنى أن يموت تحت سقف السماء الأرجواني هذا، وأن لا يرى سقفا آخر بعده.

"وكأن الضوء مختلفا اليوم". قالت

"الضوء الخفيف قد لا يرينا شيئا، والضوء الكثيف قد يعمينا"

مسحت عدسة الكاميرا بمنديل أبيض صغير، ثم أومأت إليه بأن يقترب منها، جلس بجانبها تحت شجرة مجهولة ربما هي شجرة سرو.

"ما الأمر؟" سأل

وجهت العدسة إلى وجهه النحيف:

"الضوء مناسب لصورة سريعة"

وما كان عليه إلا أن يذعن لأوامرها، وقد أعطته سهما مزيفا ووترا مشدودا إلى قوس، وكان عليه أن يجازف باصطناع نظرة قاسية وجهها صوب السماء، رافعا سهامه نحوها، ملتزما مكانه في سكينة، لا شيء يتحرك فيه إلا خصلات من شعره المجعد التي تراقصت بتناغم مع نسيم الغروب المرتب.

إنها لصورة عظيمة "قالت مع ابتسامة مغلقة تنم عن جدية، وكانت قد أنفقت دقائق كثيرة في سبيل تحصيل تلك الصورة النقية، ولعلها لا تشبه

أي صورة أخرى له، أو للغروب أو الضوء، إنها لم تشك قط، ولو بضعا من الشك في أنها كانت الصورة الأجمل على الإطلاق.

بعد موت الضوء وهديل الحمام، سار كل منهما في سبيل مختلف، وكان القمر يبدو مصطنعا بشكل كبير، حيث بدا كبيرا ومسطحا وورقيا، اتجهت ديهيا إلى حيث تبيت كل المنفيات من النساء، أرض مبسوطة تناثرت عليها منازل واسعة عالية منتظمة الشكل، تتخللها أرصفة رمادية وأعمدة إنارة باسقة، وعلى الأطراف نخيل واشنطن قد بسق ليفه وأشجار كاسيا فستوليا، وفي الزوايا مكتبات وورشات صغيرة، وكذا مسابح رخامية مكشوفة، وأشياء أخرى متوهجة لا تكف عن البريق، وتعين عليه هو المبيت في إحدى دير الرجال الذين كان عملهم يقتصر على حراسة النساء المنفيات والحرص على عدم خروج أي منهن إلى مدن أخرى خشية أن تصاب النساء الأخريات بعدوى الجنون والثورة.

كان في الإمكان رؤية مدى تعاسة بيوت الحراسة ها هنا، كانت منازل واطئة عديمة اللون، مع سقف مشوه من الخشب الأحمر، قد تكون متطابقة تماما لولا النوافذ الضيقة التي انبعث من بعضها الضوء وأخرى العتمة، وكان بعضها مفتوحا أو نصف مغلق.

فيما كان يفكر حينها؟ لا يدري، في رأسه أسئلة كثيرة، سؤال يلتهم سؤالا خشية أن يبتلعها النسيان جميعا، كم سؤالا يفصله عن الإجابات يا ترى؟

كان يشتهي أن يضرب رأسه المكتظ على الجدار ويفض بكارة أفكاره، علق في نفسه باشمئزاز: "إن الذين لا يفكرون يعيشون أحرارا ولا يرهقهم شيء"

أثناء ذلك، صرخ بيدرو بطريقة مفزعة من نافذة ما:

"إلى هنا إلى هنا"

رمى ساقيه للريح ثمّ سار على مضض، عبر أزقة رتيبة لا تعرف عن النور شيئا.

في اليوم التالي، ترش الشمس نورها على الظلال عبر ثغور المادة، كل صباح، حيث يتقلب الإنسان بين أحلام الليل التي يتركها غافية تحت الوسائد، وبين أحلام النهار الذي يمسح بلعابه النعاس اللصيق بالرموش، ويملأ المرء عينيه ببشاعة السقف الذي كان الظلام يطمس معظم تفاصيله، ربما ككل صباح، تتدفق سحابات ملوثة بالفوضى إليه ويسلك الشعور طرقا خلاله ينسيه شيئا شاقا، ويذكره بشيء آخر لا يطاق, لماذا يحزن لماض بائس؟ ماض قد لا يعنيه حتى، لا يدري، أخذ يحشو أصابعه في جيب سترته العميق: أوراق معجونة على شكل جيب بنطال، تذكرة لفلم قد عرض منذ ست سنوات، أنصاف سجائر، دمية ماتريوشكا...

نظر في مرآة مضببة بالعفونات، يلتمس جرحا قد غدى ندبة عميقة على جبينه، تساءل "هل جلدي مذنب في تلقي الجراح؟"

في غضون ذلك، أجفله صرير باب الغرفة، مما جعل ضبابة الانشداه تضمحل في الأفق، دخل بيدرو يحمل قفصا به عصفور، ويصيح في دهشة:

"أترى عصفوري هذا؟ نسيت إغلاق قفصه مرات عديدة، ولكن ورغم ذلك لم أجده خارج القفص يوما، إن عصفوري اعتاد القفص، لقد نسي أن له جناحان حتى"

ثم أردف مقهقها:

"هذا بالضبط ما يجب أن نفعله بكل النساء المجنونات في المنفى"

سأل بينما كان يغلق حزام بنطاله الفضفاض:

"ولم يحتجز المرء عصفورا، أو نساء؟"

نفض بيدرو سيجارة نحيفة في صحن، وأخذ يرتشف شايا من فنجان قهوة به شرخ:

"من الجميل أن يكون للمرء شيء لامتلاكه"

"حمق!" تمتم بين شفتيه

"هل قلت شيئا؟"

"لم أشعر بالجوع لأيام، لذا كنت أتساءل هل كنا لنأكل لولا وجود الجوع"

"هراء إنني أستطيع أن أسأل إن كانت هذه الجريدة تقرأني مثلما اقرأها أو هل تدخنني هذه السيجارة مثلما أفعل، قد يبدو صياغة سؤال كهذا عبقريا، لكنه مبتذل، لأنني لن أجد الإجابات أبدا، حتى وإن وجدتها فهي لا تعني لي أو لك شيئا"

"لا تسخط، كنت أتساءل فحسب"

"لا يهم"

لم يكن يعلم حقا سبب مكوثه هنا حقا، وربما لم يكن له متسع من علامات الاستفهام ليسأل نفسه، ولأول مرة، كان رأسه فارغا لدقائق، لذا بدت نفسه خفيفة جدا، الجو مبهج وبديع، يؤجج النسيم سيجارته، فلا يلبث الجمر أن يتلاشى في هبة الريح التي تمر به عبر الجوقة والفتيات ملحة على دفعه بلطف، آه، في داخله ثمالة عربيدة لا تنتهي البتة، يسير في مشي يكاد يكون هرولة، ثم توقف متنهدا بعمق إزاء جدار مكتظة ثغوره بالسجائر، يفرك شعره الأشعث بغصن صغير كمن يبحث عن شخص ما، همس صوت رخيم في أذنه من الخلف:

"لقد أتيت!"

قال مفزوعا:

"لقد أتيت"

استدار، كانت ديهيا، قالت بعدما توقفت على بعد شبر منه:

"أينما تذهب تفضحك رائحة حزنك"

تردف:

"ألا تدرك أن اليوم يوم المسرحية؟"

أجاب:

"وما أدراني؟"

تقول له مشككة:

"ألم يرسلك رجال الحراسة لتأتيهم بأخبارنا؟"

"لا آبه... لست هنا لأهتم" قال في عدم اكتراث

"أتعلم؟ يقولون اللامبالاة شلل الروح!"

سألته وهي تلتمس جرحه بمنديل أبيض:

"هل يؤلمك؟"

بدا وجهه مشككا... أزاح يدها والمنديل:

"إنها على جلدي، لكنها ليست جراحي... لست من تسبب بها"

"لا تحزن، سيلتأم جرحك العميق رغما عنك، ولن يظل هناك شيء تموه به حزنك بعد الآن"

لم يقل شيئا، أضافت:

"ستأتي معي إلى المسرح صحيح؟"

كانت الإجابة في عينيه، واضحة كطلقة رصاصة:

"لا مانع لدي"

لم يكن يستشعر شيئا من مسؤولية الإجابة، فإن طلب منه أحدهم أن يرمي نفسه في جب لفعل، وبشكل أكثر تفصيلا، كان يبدو مخدرا، والحق أنه كان يهرع للمبالغة في أي شيء قد يريه سبيلا إلى نفسه، غير آبه بشيء، لعله، ولعله يجد السعادة في شيء، ويقلع عن جلد نفسه في كل مرة يفشل في إيجاد بهجة ما، كان مثل سيسيفوس تماما، الذي عاقبه الإله برفع صخرة عظيمة من أسفل الجبل إلى أعلاه، وريثما يصل إلى القمة حتى تنحدر الصخرة مجددا إلى أسفل القاع، ويعاود التكرار في جهد عقيد لا فائدة منه.

في المسرح، أسرعت ديهيا إلى الصف الأول وحجزت لهما مقعدين من القطيفة، كانت الستائر من قماش الموسلين بلون أحمر قان، مطرزة بشرائط الساتان الليلكي متعانقة لم تفتح بعد، ترى النساء يدخلن متبرجات عبر المداخل الثلاثة للقاعة بصدور مرفوعة، وقد أخذ وقع الخطى يتلاشى تدريجيا بعد دقائق قليلة، وران السكوت، وانطفأت الأنوار، وانسكب صوت الكمان بإسراف على حين غرة، ووجهت بقعة كبيرة من الضوء على الستائر فور انشقاقها، تظهر فتاة بدينة الجسم، تلبس بذلة ضيقة وربطة عنق طويلة، جالسة على كرسي أحمر من الخشب الصقيل، تقول:

"أدخلوه"

تدخل فتاة حسناء الوجه، تلبس باروكة رخيصة ونعلا مطاطيا وأسمال بحار زرقاء فضفاضة، قد رفعت رأسها إلى السماء في خفة، تردد ضاحكة بصوت عال:

"الحرية تشترى، الحرية تشترى" ثم بشكل متقطع:

الحرية؟ تشترى؟

تنظر عبر الستائر في حزن:

"وإن أسعارها كالتالي:

العنف والموت، الثورة والعصيان، ناب كلب..

يتوجب أن تخسر شيئا تدفعه مقابلها، ويا سيدي، أيها العادل ما عندي من شيء، وإنني من فرط فقري أحتار، إن كنت حزينا لأنني لا أملك شيئا، أم سعيدا لأن لا شيء يملكني"

تتراجع في خوف، تخبأ وجهها:

"لا شيء يملكني، مع ذلك لست حرا، وكيف ذلك يا سيدي العادل؟"

الفتاة التي ترتدي بذلة:

"لست حرا ما دمت طليقا على زبد الموج أيها البحار، ألست حرا نكبر عار، في زقاق في جريدة؟"

تضيف في لكنة متنمقة تنم عن عدم اكتراث:

"أنت حر ما دمت لا تؤذي أحدا"

"وهل لي أن أقول الحقيقة إذا امتلكتها؟"

"أنت حر فيما تقول لو أنك لا تُسمع أحدا"

"إذا أخبرك برأيي في أ......"

"اعتقلوه!"

وقبل أن تسدل الستائر أحدثت ديهيا قرقعة بإصبعي السبابة والإبهام مما جعلته يلتفت نحوها، ثم همست في أذنه بصوت منخفض خشية إحداث شوشرة في القاعة:

"هل أنت مستمتع؟"

"وهل يجدر بنا الاستمتاع؟"

"على ما يبدو"

"أحس بشيء من الدوار..."

"ولماذا؟"

وضع يديه على ذراعي المقعد استعدادا للنهوض:

"سأخرج لأدخن سيجارة"

"لا بأس.. أنا سأبقى للتصوير، لكن لا تبتعد حتى أجدك بعد ذلك"

ثم دلف إلى الخارج متسللاً ومرتبكا، وقد وجد لنفسه مكانا للجلوس، لكنه فضل أن يبقى واقفا، فمال على الدرابزين، إذ تراءى له منظر العشب الذابل المفروش بعيدا في الأفق، وأسوار المدينة الكاكية، وبدا لون عينيه مع الشمس كبحر صدئ.

وكانت بعض الطيور تحط أحيانا على الرصيف الحصبائي مختالة الخطى، تغني وتقبل الأرض لتلتقط الأزهار الميتة والفتات المتناثر، ثم تفرد جناحيها بشكل فطري، لتمضي نحو زجاج السماء مجددا، أو لتعود إلى أعشاشها على الشجر مساء كعادتها، "ربما يفضل هذا الفرخ الموت على أن يسجن في قفص رجل منا" هل هذا ما يفكر فيه العصفور حقا، أم هذا ما يفكر فيه بشري وضيع مثلي؟" قال في قلبه، وفكر في ذلك عميقا جدا، ولم ينقض الكثير من الوقت حتى تدفقت إليه فكرة أخرى:

"ولعلها تعتاد الأقفاص، فكل الأمور تؤول إلى أن تصبح عادية ونمطية حين نعتادها، كما هو الحال مع كل شيء بين الخلق والموت، بيد أننا نخلق مرة واحدة ونموت مرة واحدة أيضا، غير ذلك فإن كل شيء متكرر"

كان يدرك أنه لن يهتدي قط إلى كبح هذه الأفكار المرهقة الأشبه بنوبات هستيريا، ولن يقدر على معرفة إن كان تحرير العصفور من القفص يجعله حرا بشكل مطلق، ففي آخر المطاف هو ليس عصفورا، ولا سيما أنه بشري يتعامل مع الحرية كشعور لا يختلف عن الحزن والخوف والنشوة، قد يكون المرء حرا في شأن، وغير حر في شأن آخر، أو حرا الآن وغير حر بعد ذلك، إنه فقط شعور والشعور لا يحتاج إلى تخمين أو برهان.

عندئذ، كانت الأبواب من خلفه قد أغلقت بشكل مجفل، وانسلخ من حالة الحيرة إلى حالة ذعر، وراح يلتفت يمينا وشمالا، وانبرى صوت جلبة فجأة، وأحاط به فيما كان يتفحص الأبواب الأخرى إن كانت قد أغلقت أيضا، وإذ دنا من الباب الجانبي الوحيد الذي لم يغلق سمع ثرثرة أقرب إلى الصياح، وأبصر رجالا مقرفصين وجثة امرأة مضطجعة مضرجة بالدماء يتشممها كلب جيرمن، اعترته حالة ذعر واضحة، وارتعشت فرائصه، حتى إذا انتبه الرجال لوجوده، تبادل اثنان منهم نظرات مشحونة بشيء مخفي، وهم أحدهم بإيصاد الباب الأخير في عجل.

كان بيدرو واحدا منهم، وحين لمحه واقفا، تقدم خطوتين ثقيلتين نحوه، كأنما كان يمشي في وعث، ثم سأله:

"ما الذي جاء بك إلى هنا يا فتى؟"

يقول أحد الرجال متهما:

"أغلب الظن أنه كان برفقة إحداهن في الداخل، أو أنه قواد الرجال الآخرين"

أخد يصد شعاع الشمس البرتقالي عن وجهه رافعا يده إلى فوق عينيه، وتقدم بدوره خطوتين مجرجرا قدميه إلى الأمام، وقال مشيرا إلى الجثة بيده الأخرى:

"هل هي ميتة؟"

"هذا ليس من شأنك" يقول الرجل

ثم قال رجل أشمط الرأس سائلا البقية:

"ومن هذا الصبي على كل حال؟"

تدخل بيدرو:

"إنه معي..."

"إذا فلتذهب أنت وهو إلى الجحيم"

كان أحدهم يقلب بهراوته الجثة المدماة، فبان نصف وجهها تقريبا، إذ أن النصف الآخر قد صبغ بالدم المسفوح، والتصق عليه غبار القش والتراب، رمش بعينه لثوان، وابتعد عنها مسافة ذراع، ثم نظر إلى بيدرو منزعجا، وأشار إليه بسيجارته:

"ارحل، ارحلا!"

ثم بصق بصقة ثخينة، لكنها كانت كسولة ولم تتجاوز حتى ظله الهش.

الفصل 3

هجع الليل، ولم تحمل السماء عبء نجمة أو ثلاث، ولم يكن في الغرفة نور سوى بصيص مصباح سفح نوره على طاولة مزدانة بنقوش صينية مذهبة، وعلى جرائد بالية، وهرمونيكا، ومنفضة سجائر وأشياء أخرى مشوهة بدا شكلها زائفا في الظلام.

كان جالسا على طرف السرير يدخن سيجارة، ولم يكن في الغرفة مكان لبقعة شعور إضافي، ولا متسع لجسد فكرة أخرى، فإن كل ما يمكن للمرء أن يفكر فيه أو يشعر به لحظتئذ مرير ودسم ومحزون، أراد بحق أن يسأل عن سبب قتل تلك المرأة، ولكنه لم يفعل لسبب ما، وليس ضعفا، إنما هو عدم اكتراث، فبوسعه أن يسأل، إنما لم تكن لديه أدنى فكرة عن إمكانية تصنعه اقتناعا مزيفا بالإجابة التي ستكون كذبة في غالب الأمر.

أطفأ سيجارته على الطاولة، واستسلم لفكرة اعتباطية لم يكن متأكدا بشأنها، فكرة أشبه بالموت لليلة واحدة: النوم.

لكن بيدرو تنازل عن صمته في اللحظة غير المناسبة، وأخذ يربط بشكل غريب ما حدث مع أشياء عشوائية لا جدوى من ذكرها:

"أرجو أنك لم تقلق بشأن الجث...."

"لا" أجاب في اقتضاب ثم راح يتمطى: "جيد، لقد وجب علينا التضحية بإحداهن في سبيل المحافظة على السلطة، وخشية الفوضى سنقول كلمتنا، سنقول أنها أقبلت على قتل نفسها، ما رأيك في أن يقتل الإنسان نفسه؟ فهذا في نظري أكثر الجبن شجاعة"

أشعل السيجارة الأخيرة في العلبة، ثم أردف:

"كان لي زوجة وقد هجرتني منذ سنوات، لقد أحببتها، إنني أدين لها فقط بنهاية... صحيح يصير المرء عبدا حين يظن أنه يدين للجميع بكل شيء"

وحين لم يعد هناك المزيد من السجائر ليقتلها، وتقتله، بصق في المنفضة، وأضاف جملة أخيرة قد لاذ بعدها بصمت كئيب:

"آخ...يميتنا الشيء حين لا نحب شيئا سواه"

مثير للشفقة، أو للاشمئزاز، أو للقلق، لم يكن يدري، ثم أن الأرق طوقه بليلة بيضاء منسوجة كشباك عنكبوت نال من ذبابة لعينة، وأثناء انتظاره صبيحة اليوم التالي أخذ يعدد الأسباب الممكنة التي قد تدفع الإنسان ليقتل إنسانا آخر: الانتقام، الغيرة، الجنس، جنون طارئ، أو نزعة ما متأصلة في الإنسان لا يمكن تفنيدها، غريزة قابيل الطائشة ربما، إذا كان الأمر كذلك، فإن البشر الأشقياء تائهون، لا يعرفون ما ظنوا أنهم يعرفونه، هل كان هو مثلا ليقتل شخصا ما إذا سُمح له بذلك؟ هل يمكنه فعل ذلك فقط بدافع إرادته التي تعد حريتها أهم نقطة فاصلة؟ هل يمكنه قتل شخص ما إذا لم يكن هناك عقاب من أي نوع؟

يا للسخف، لن يعرف أبدا!

و... حين غاص عميقا في هذا الشأن رأى شيئا جليا، وقد يكون السبب الأسوأ من بين كل الأسباب، مع أن كل الذرائع التي من الممكن أن يضعها

المرء نصب عينيه بغية تبرير القتل، قبيحة ولا تحفل بالفضيلة مهما كانت، خمن في شيء واضح:

"كان يجب أن نضحي بإحداهن لتحتيم الانصياع"

بالطبع!

ولكن لا بد من تمحيص هذه الفكرة، فإنها لن تختمر دون عقدة ما قابعة تحت شعور متعفن آخر، الخيبة؟ بالتأكيد، فإن ذلك الألم العميق حين يلتأم يترك خيبة، إنها شعور لا يتبدد ولا يزول، بل أشبه بكرة ثلج تزداد حجما في كل مرة، إذا كل هذا الكره والعنف الكامن ما هو إلا عقدة؟ ربما، فلا يمكن الجزم أيضا، حتى حين ربط كل فكرة بأخرى، استنتج شيئا مستحيلا، مثلا، كأن تحاول فصل كتلة شعر معجونة بكرة من العلكة.

مرت ثلاثة أيام عن تلك الليلة، وإذ بالخزي يجثم على صدره مجددا كشيخ سمين، وكذا بعض من الحزن المندس تحت جلده قد نخره من الداخل كحشرات سوس تتضور جوعا، كل يوم ينصرم، يُحمل بوجل على أكتاف الذكرى كجثة جندي خائن، كل تلك الأيام الغضيضة، التي لا تتنصل من الحالة السوزيفية التي هي عليها، كان يصرفها كما تساق البهائم إلى الخلاء، ولكن سرعان ما تتشتت وتتبدد بشكل عشوائي كقطيع مذعور من النمل الأحمر.

وحين استجمع أشلائه المتناثرة على شكل فقاعات من الهلاوس الهشة التي تطفو وتداعب السقف دون أن تنفجر، خال إليه أن كل شيء ما عدا

ذاته هي نسيج ميتافيزيقي رث، ولا شيء حقيقي غير الفكرة في رأسه عن كل شيء، أيضا، لم تكن لديه أدنى فكرة عن الوقت، وحين فتح الباب، لفحته رائحة الظهيرة، وقد يتمكن الواحد من سماع زحف النسيم عبر السراخس اليابسة، وكذلك رؤية اللون العنيف للفضاء الذي يحرف إلى بقعة بيضاء مصفرة في الأفق البعيد هي الشمس، ولم يكن قادرا على رؤية شيء واضح عدا أرنبة أنفه، وليس الذنب ذنب الشمس، إنما كانت عيناه ملوثتان بالأسى.

كان كل المكان في الخارج عبارة عن خواء تام، لكن بعيدا بعيدا، بانت له نقاط يائسة مشوهة بفعل وميض الحر تقف مهترئة على تل آخر، وحين اقترب منها، اتضح أنها عبارة عن كيانات بشرية محتشدة تحت القيظ، بل عبارة عن مجموعة من النسوة الحزينات اللاتي يمارسن حدادا من نوع ما.

تحت شجرة زيتون، برزت صخرة عريضة ومهشمة، تشبه كثيرا شواهد القبور الرخامية، ولم يكن ثمة اسم ما، أو تاريخ، سوى ذرق الحمام والطيور يطمر كتابة رديئة:

الموت ليس شيئا رهيبا.. الرهيب هو ألّا نموت[1]

1. مقولة لهيوجو

كانت الأرض قطعة واحدة من التراب الذي لبس لون سوسن المقابر الأبيض، أما الرائحة فكانت رائحة جافة، خليطا بين أوراق الاوكاليبتوس والشواط والجنازة...

وقف بعيدا تحت ظل سور المدينة الذي يمر بهضبة، متخفيا كالجرذان، وعلى مسافة شخص واقف في الفضاء كانت هناك لحية من الأوراق الشبقة تحف على نحو هادئ فوقه، مما جعلته يزداد قلقا، كان ذلك واضحا كشمس تلك الظهيرة، تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها جنازة ما، فلم تكن حقا من الأشياء التي تعنيه كما يعنيه الموت نفسه.

صعد التلة الخفيضة في هرولة، وامتزج بالنساء الواقفات على الحواف في مجموعات صغيرة، كانت نظراته معلقة على ديهيا التي كانت مع ثلاث فتيات أخريات: باباس، أليكا وثيوفانا، حط يده المتعرقة على كتفها:

"ما الذي حدث هنا؟"

"قتلت نفسها، على الأقل هذا ما قيل" مختزلة الإجابة

"وكيف؟"

"لا أحد يعرف، وجدها ودفنها رجال الحراسة، كانت أبواب المسرح مغلقة حينها، ربما...."

قاطعت ثيوفانا:

"أعلم أنها كانت مرهقة، حقا.. لا يمكن للمرء أن لا يجن في مكان كهذا!"

قالت ديهيا:

"لا بد من وجود إله، وإلا...فإن الموت نقطة نهاية، ولا أستطيع تخيل انتهاء المرء هكذا وكأنه لا يعني شيئا لأحد"

"إذا كان العالم اللاكتراثي هذا سينساني كأن تنقضي حياتي هكذا كصب ماء على الرمال، يمكنك قتلي الآن!" تؤكد: "الآن"

"لا بد من وجود إله"

"إله منصف"

"سأقبل بحتفي حين أجعل الموت فخورا بأخذي"

"الحياة ليست تراجيدية لشكسبير، والموت ليس خيارا، بل نحن نرثه كالحق"

وضعت ديهيا يدها على خاصرتها كحركة دفاعية:

"سخف، يمكن للمرء إنهاء حياته، يمكننا اختيار أن نموت"

"لكننا لا نستطيع اختيار أن لا نموت"

"يا للأسى! لا أحد يختفي هكذا، للأبد، وبدون رجعة"

"لكن هذا ما تؤول إليه الأمور دائما"

وقتئذ، نظرت ديهيا إليه كمن ينتظر إجابة ما، نظر إليها بدوره، كانت تلبسه نظرة بهيمية، سألته:

"ألا يبدو لك أن الموت حق، أو واجب، أو حتى خيارا؟ ألن تقول شيئا؟"

أثناء تفكيره في جواب ما، تناسلت بعض الأسئلة بغتة في عقله بشكل طفيلي: لحظة! ألم يكن الوحيد الذي يعرف أن ما حدث ذلك اليوم جريمة وليست عملية انتحار؟ إذا، هل يتوجب عليه إخبارهن بالحقيقة؟

قال في نفسه:

"لماذا نخبر الناس الحقيقة التي نعرفها إذا لم يعلموا بوجودها أساسا؟"

ارتجل جوابا:

"الموت؟ لا بد منه"

"صحيح، نحن عبيد للعجز والحنين" قالت أليكثا

أثناء ذلك، سألت باباس سؤالا يشمل الجميع، لكن وجهها، كان مصوبا نحوه:

"هل سبق وفقدت أحدهم؟"

أجاب، ملوحا نظره إلى آخر الأفق:

"نعم"

"هل تشتاق إليهم؟"

"لا"

"لا؟"

تضرب ديهيا كتفه:

"ألا تحن إلى شيء ... أيتها الصخرة!"

ربما كان لا يفهم، على غرار عادته، كيف تصبح الأشياء غير قابلة للعيش، والشعور، والتفكير، أن تنتهي الأشياء الحية، والجامدة، فرادى، فجأة، كإنسان في صدر قميص لم يعد يتسع لرصاصات أخرى، كجذع مبتور، كزهرة مغتالة من على رصيف مخضب بالنهار، أو كموجة مزقت نفسها على أطراف الساحل...

ألا تعود تلك الأشياء يوما؟ بشكل ما؟ على شكل ما؟ ألا تشتاق الأشياء المنتهية إلى اللحظة الأولى من كل شيء؟

إن المرء يعرف، أنه لا يكاد يعرف شيئا، حين يكون محاطا بالتشكيك، لكن الحقيقة المطلقة الوحيدة التي يدركها هي الموت، أو على الأقل، هذا كل ما يعرفه كل واحد منا ههنا، الآن، في هذا العصر من الزمن، وقبل أن

يغتصب شك مخبول هذه الحقيقة غير القابلة للدحض أيضا، في يوما ما، حين نصبح قادرين على معرفة إلى أين ترحل الأحلام حين توقظها الحقيقة.

ولم يكن يفهم سبب انشغال الكل، وهو واحد منهم، في فهم أشياء لا تزيده إلا تعقيدا، كأن يستغني عن الحياة الآنية بغية تفكيك أحجية الموت المستحيلة بالنسبة إليه ككائن تحت سقف الإله، إن ذلك أشبه بتضميد جلد ينزف، بالمزيد من الجراح.

قال في نفسه: "ألا ينبغي أن نثير أنفسنا فيما يكون العقل خصبا فقط؟"

ولكن، لا يمكن سد تلك الفجوة العظيمة بين الحقيقة في نفسها، وما نراه نحن عليها، وأيضا لا ينبغي للناس أن يتناولوا ما يعرض عليهم، هكذا، ككلاب تتلقى كتلة من الجيفة، بل يجب أن يضعوا عقولهم في وعاء الشك بين الفينة والفينة، ذلك تماما ما ينقذ الإنسانية من أسطورة الدوجماطيقية.

"لا أتوقع أن أنام الليلة" قالت باباس

اقترحت ديهيا قرارا بدى وليد اللحظة:

"يمكننا المبيت معا"

"أليس هذا ممنوعا؟"

"ومن قال؟"

"أظنني سمعت هذا من قبل"

قالت ثيوفانا:

"تبدو فكرة جيدة، ولكن أقترح أن نبيت في الخلاء..."

قاطعتها باباس:

"الخلاء!"

"نعم، على الساحل، هناك مكان اعتدت الذهاب إليه مع أليكّا" التفتت إليها لتؤكد ما قالته

"إنها جنة" جارتها أليكّا، ثم أضافت وكأنها تذكرت شيئا مهما: "إنها بعيدة جدا، لكن... يمكننا الوصول قبل الغروب إن ذهبنا الآن، شريطة أن تسرع باباس في المشي، إنها تمشي على البيض!"

أطلقت ثيوفانا ضحكة خاطفة، ووارت ديهيا ابتسامة صفراء تحت منديلها

"هل تقولين هذا لأنني بدينة بالشكل الذي يزعجك؟" قالت باباس

"وما هو الشكل الذي لا يزعجني؟"

قاطعتهما ديهيا طالبة منه الانضمام إليهن، لكن ثيوفانا قد صرخت معارضة في لكنة تنم عن تسلط:

"الطريق طويلة ... لا شك في أنه سيتعب سريعا ولن أضطر إلى انتظاره"

وافق هو الآخر على ذلك بإيماءة سريعة، التصقت ديهيا به وقد لفت ذراعها بذراعه مصرة على قدومه:

"بلى، أنظري إلى ساقه المعضلة التي لا تحمل شحما..."

ازدادت نبرة ثيوفانا فظاظة:

"لكنه..."

"ماذا؟ رجل؟" قالت ديهيا في سخط، ثم سحبت نفسها منه، ونظرت إليه مطولا، ثم أضافت:

"أخبرها أنك محل ثقة... أخبرها!"

لكن ثيوفانا لم تترك مساحة ليقول شيئا، إذ راحت تغمغم مبتعدة:

"ماذا الآن؟ يطلب الرجال أشياء مستحيلة، كأن نثق بهم... هنا؟"

والحق أنه لم يعر مسألة الثقة هذه أي أهمية، فلم يكن يجد داعيا لثقة ديهيا به، أو عدمها عند ثيوفانا، ولم يجد داعيا أيضا لأن يثق، أو لا يثق المرء في المرء، ولا فرق بين الذين نثق بهم والذين لا نفعل (ففي آخر المطاف يحبط الجميع الجميع) سوى أننا نبرر بأي شكل ساذج خذلان الذين نعتبرهم جديرين بالمعاناة.

فالثقة التي نمارسها عاطفية ولا علاقة لها بالعقل، وإن كانت متعلقة بالمنطق، فلن يتورط البشر في المزيد من المعضلات إزاء زعمهم تنبؤ ما سيحصل من حولهم، كقول أحدهم في لحظة يأس "أعرف ما سيؤول إليه الأمر لأن فلان يروق لي، وأثق به"

إن المرء يموت في تلك اللحظة بالذات، فإن كل هذه العشوائية والفوضى حولنا تجعلنا جاهلين تماما بمستقبل الأشياء، وما ينوي إليه الناس، وهي أيضا، ما تجعل الحياة جديرة بعيشها.

ولا أقول أن نترك باب الثقة مشرعا للقليل من الشك، فهو أصلا باب مخلوع في الغالب، ولكن، إن بدأنا في التعامل مع الثقة على أنها نتيجة نتوصل إليها، وصفة من تلك الصفات التي نمنحها للأشخاص ولا تأتي معهم من تجارب أخرى، فلن نكون بعدها عالقين إلى الأبد في هذا الكم الهائل من الحيرة بمن هو جدير بها، كأن تكون عالقا على سلم يؤدي إلى باب موصد، وكذا حين تقرر النزول، يتضح أن الدرابزين يسد درج الهبوط أيضا.

بعد ثلاث ساعات من المشي بين الأحراش والنخيل، تمدد الجميع على الشاطئ، يتكلمون ويقهقهون، كانت السماء فوقهم بلون سخامي، والمحيط أمامهم بلون القطران، والأرض تحتهم بلون النار التي غطى صوت أزيزها الشاعري صوت تكسر الأمواج العنيف، قالت ديهيا:

"هل نحن مجنونات حقا؟"

رفعت أليكَا يدها عن كتاب قديم كانت تحاول فصل صفحاته التي التصقت بفعل الرطوبة، وغمغمت ساخطة:

"إنني هنا منذ عامين وفي بعض الأحيان، أشعر أنني بدأت تصديق هذه اللعبة اللعينة"

قالت باباس:

"أحس أحيانا أن عقلي في رأسي تفاحة متعفنة لم تعد تغري أحدا"

سألت ديهيا أليكثا:

"كيف انتهى الأمر بك هنا؟"

"كنت أحاول كتابة الشعر... إنه أمر صعب إذ أن الإلهام لا يزورني سوى مرة أو مرتين كل أسبوع، كما أنه لم يعد هناك من يكتب عن شواطئ البحر وسحر العذارى"

أجابت ديهيا ساخرة:

"الإلهام؟ آخ.. الإلهام أسطورة دنيئة يخبئ بها الفنانون الكسالى فشلهم في الاستمرار"

ثم أحالت نظرها عن أليكثا، وسألت باباس:

"ماذا عنك؟"

"لم أتزوج"

انفجرت أليكثا ضاحكة:

"هذا سبب آخر لعين، المرأة لا يمكنها أن تصبح شيئا، إنها تولد زوجة لعينة أو أُما أو عورة، وإن كانت محظوظة بما يكفي يمكن للمرء أن يناديها ربة منزل"

كنست ديهيا بعينيها أطراف المكان، فكرت قليلا، ثم قالت:

"لا أدري لماذا نمنع من ممارسة ما نريد! إذ أن النساء كن معظم الفن الذي صنعه الرجال، خلال اللوحات أو التماثيل وعبر القصائد والروايات والموسيقى، هل يخلق البشر هكذا؟ يصنع البعض فنا ويكونه الآخر؟"

قالت باباس:

"أخبرتني فتاة من غجر الجانطو أنه لا يتم نفي أي امرأة من الشمال إلى هنا، يمكنهن فعل أي شيء، يمكنهن فعل ما يفعله أي رجل"

"الوضع مختلف هناك... أما هنا، فلم يتغير شيء منذ عهد أنخيدوانا حتى هذه اللحظة من الزمن" تحسرت ديهيا ثم أضافت: "بل من عهد حواء!"

تمطت على شفتي أليكًا ابتسامة مغلقة، ثم راحت تقول بلهجة مازحة:

"يمكننا الرحيل إلى الشمال، سنقتل كل رجال الحراسة ونفتح الأبواب الحديدية ونهرب"

أخذت ديهيا تجاريها :

" وكيف سنقتلهم؟ بفرشنا المجنونة أو بأقلامنا الدموية ؟ إننا لا نملك شيئا غير ذلك"

"سنسممهم بالزرنيخ"

"إنهم لا يأكلون مما نأكل ولا يشربون مما نشرب، هذا محال"

خمنت أليكثا طويلا، ثم قالت:

"قرأت قصة ذات مرة من قصص ألف ليلة وليلة، عن رجل سمم ملكا أساء إليه، حيث أهداه كتابا قبل إعدامه، وقد كانت صفحاته المسمومة ملصوقة ببعضها، فأخذ الملك يبل أصبعه في كل مرة يطوي فيها صفحة من صفحات الكتاب حتى أهلكه السم ... لكن.... ما الكتاب الذي سنستعمله هنا؟"

قهقهت ديهيا :

"...المركيز دو ساد!"

ثم راحت تضحك، وكذلك باباس، واصلت أليكثا:

"ثم... لا أعرف، حتى وإن خرجنا، كيف سنعبر البحر إلى الشمال؟ كلنا من الجنوب أو الشرق ولا أحد يعرف شيئا عن البحر الأبيض"

قالت باباس:

"إن هربت من هنا فلن أذهب إلى أي مكان، سأعود إلى الديار"

أزاحت أليكثا بضع شعرات مغرّاة على جبهتها:

"إننا تحت سقف حبس واحد، السجان والمسجون"

التفتت ديهيا إليه، تذكرت وجوده، يا للأسف، يسهل على المرء نسيانه وسط الزخم، كان متكورا، يطوق بذراعيه ركبته، كانت جالسة تحت عينيه:

"كيف هو وضع النساء عندكم؟"

أضافت باباس:

"أ أنت من الشمال؟"

أمال رأسه نفيا:

"أنا من هذه الجزيرة" حول نظره إلى ديهيا وأكمل:

"لا أعتقد أنني أعرف امرأة تم نفيها، إذ أنني لا أعرف أحدا"

"ألا تعرف أي امرأة!"

"لا"

"أنجبتك امرأة، صحيح؟"

"لا أعرفها، هجرتنا عندما كنت صبيا"

"ألم تبحث عنها؟" قالت باباس في حيرة

قلب شفتيه، ولم يرغب في استكمال الحديث، وكأن ما قالته شيء تافه، أو شتيمة، فكاهة تدعوا للسخرية، ثم أخذت تطبطب على كتفه تعاطفا لم يكن ليجد فيه عزاء، حيث أنه لم يشعر أبدا بالحسرة إتجاه الأشياء التي تخلت عنه، فعندما يرحل المرء، تطفو مكانه الحقيقة، هكذا هو الأمر...

لكن ألم يكن يتذكرها؟ هذا غير صحيح...

كان يتذكرها أحيانا، حين يقوم بجرد أغراض والده كل بداية شهر ماي، اللوحات الزيتية, قناني العطر، تماثيل الرخام والمرمر، حواشي الأقمشة الحريرية والساتان والقطيفة الناعمة، جماجم الأيّل، الحيوانات المحنطة والأمساخ العائمة في الكحول المحمر...

و ما كان يشده شيء مثلما تشده لوحات آدم وحواء، لا سيما تلك التي تبدو فيها حواء منفرة وقبيحة لألبرخت ديورر، في لحظة كهذه فقط، كانت تتراءى له أمه، إلا أن كتابة والده على خشب الإطار كانت تجعله أقل تعاطفا، وفي حاجة أقل للبكاء:

"إن حواء آثمة.... آثمة"

وأحيانا أخرى، إلا أنها مرات قليلة جدا، كان يراها على هيئة أضغاث، حين ينام ساعة العصر، وعندما يستيقظ، كان يشعر بقلبه على طرف لسانه، وبرغبة ملحة في بصقه على البلاط.

الفصل 4

إحدى الاثنين، إما أن ثيوفانا تخبئ شيئا، أو أنها تعرف أنه يخبئ شيئا...

تلك البراغماتية ذات الجورب الكحلي، قد يندهش المرء كونها شاعرة، شاعرة مجنونة بشعرها، حيث أن قصائدها ركيكة، وضرب من ضروب الجنون أن ينسبها شخص عاقل إلى نفسه، أما الشيء الأكثر جنونا، هو أن يعاقَب الواحد إثر نظمه شعرا كذلك.

إنها امرأة كالوحش، حيث أنها ذات عصر، قد سدت طريقه عند إحدى الردهات، وكانت قبضتها كفيلة بلف عنقه الهزيل ككوّة باب...

"أيها النذل... إن حلقي جاف، ومزاجي متكدر... ولا أريد شيئا غير الحقيقة، أعرف...أعرف أنك تتستر شيئا"

ولم تبقي له متسعا من النفس ليقول شيئا، وفيما أخذ يفكر في الذي كان يخفيه، دفعها بكلتا يديه حتى انزاحت جانبا، واستطاع التملص منها، وحين أسرع متجاوزا إياها، لحقته زاعقة ومهددة:

"عندما أكون أنا متيقنة، ستكون أنت في عداد الموتى"

كان يدرك تماما أنه مني بورطة شنيعة، وأخذ يقول في نفسه:

"لماذا نخبر الناس بالحقيقة؟ إنهم بالكاد يعرفون وجودها"

أن يخبرها، أو لا يفعل، الأمر سيان لديه إذ أنه لا يكترث، لكن تلك المرة كانت مختلفة، إذ أن ثيوفانا، حتى ولو أنها لم تكن تعرف بالضبط ما يخفي، إلا أنها كانت تعرف أن خطبا ما، موجود بالفعل.

عند الحديقة، في يوم آخر، كانت الشمس الضائعة في الأفق، قد ربضت كشعلة على الأرض، كانت ثيوفانا ترمقه بلمحة، لكنه لم يعرها اهتمامه، وكانت أليكا وديها تثرثران، إلا أن موسيقى مشروع ليلى على الراديو كانت تطمس معظم الحديث، وحين غدا ذلك مزعجا ولا يطاق، ضربت ثيوفانا المذياع بجماع قبضتها، فأسكتته إلى الأبد.

آنذاك، صمت رهيب قد حل، وأحس بوخز في رأسه، حيث أن عقله رفض المزيد من التفكير، كان متعبا، خاويا ومستنزفا، كقنينة مفرغة من الهواء، وكان من الممكن أن يستمر هذا الخواء في رأسه ساعات طوال، لولا أن ديهيا استأنفت الثرثرة، مستنجدة الإله:

"يا إلهي... هل من سبيل للخروج من هذا الجحيم؟"

هزت ثيوفانا كتفيها قبل أن تجيب:

"أكره أن أقول هذا، إنما هناك طريقة واحدة"

"هراء!" قالت أليكا

"بالطبع... هراء" أجابت باستهجان

"هذا مستحيل!"

"بلى"

"وما هو هذا السبيل؟"

"لن أخبركن"

"أنت تهذين، أنا هنا منذ عامين، ولم تخرج أي..."

قاطعتها: "أنا هنا منذ أربع سنوات"

"آخ... وكأن ذلك يضع فارقا"

"ستندمين!"

اختنق صوت أليكثا حنقا:

"هيا أخبرينا إذا... أخبريني"

"إذا أرادت الفتاة أن تخرج من هنا، فلا بد أن يتزوجها رجل ما"

ضحكت أليكثا، وضحكت معها ديهيا، زعقت ثيوفانا:

"أنا جدية فيما أقول أيتها الساقطات"

"بالضبط، هذا هراء، تلوذ بسجن من سجن آخر..."

"غريق وتعلق بقشة" سخرت ديهيا... ثم أردفت:

"ولكننا لا نخرج أبدا خلف الأسوار، ولا يزورنا أحد، لا أحد سوانا هنا، نحن وأولئك الرهط الأوغاد ... وموتتنا، لا تساوي شيئا، آه...قلبي ينزف دما لأجلنا!"

"إنها تهذي..." قالت أليكثا

قلبت باباس عينيها:

"لكن ثيوفانا محقة!"

"كيف؟"

"كل ثلاث سنوات، يختار الحراس عشرة نساء للسوق، إنها المنطقة الخارجية المحيطة بنا حيث يحضر مئات الرجال أنفسهم، و..."

"سوق؟ قالت سوق؟.. اللعنة!" تهجمت أليكثا

"لا تغطي الشمس بغربال، هذا صحيح، نحن نُشترى مقابل أي شيء ... مقابل لا شيء... إننا نباع كالعبيد!"

سوق للنساء؟

لم يصبه الذهول، فقد سمع عن هذا الشأن، وقرأ عنه الكثير، لم يره من قبل، إنما أمر كهذا قد يحصل، كما تحصل كل الأمور الشنيعة والجميلة التي يسمع عنها المرء ولا يكاد يصدقها، حتى يقابل القليل منها بشكل مستمر طيلة حياته: إنها حقيقية!

الأمر ليس عجيبا، ما يعرفه عن النساء لا يجعل الأمر كذلك، فالمرأة التي عرفها كائن قزمي لا يجلب سوى العار والخزي والألم، ومخلوق ضعيف لدرجة أن يمكن تشييئه، أي أنها في آخر المطاف ليست سوى شيء، شيء يمكن امتلاكه، كسيارة ومنزل وحيوان أليف.

طوال حياته، لم ير قط رجلا يعتمد على امرأة، حتى عمه الذي كان مخلصا لامرأته كثيرا، لم يكن يفعل ذلك كونها امرأة، بل فقط لأنه كان يحبها، فبشكل ما، كان تقديره ذاك للنساء يتمزق مع الأخريات، ويتحول إلى مازوجونسية وتعنت وازدراء محض.

وإن النساء اللواتي عرفهن، أو سمع عنهن، إما خاذلات أو مخذولات، ولم يكن يدري إن كانت المرأة تستطيع أن تكون شيئا آخر غير ذلك، فحتى ما أنجزته لا يعتبر شيئا، وأعمالها عبر الزمان تكاد تعد على الأصابع: السترات الواقية، حفاضات الأطفال، غسالة الصحون، ماسحات زجاج المراكب، البيتزا المجمدة، الأكياس الورقية مسطحة القعر، لعبة المونوبولي...

من الصعب أن يكون المرء امرأة!

إنما لو خيروه هو ذاته، فيما يريد أن يكونه، فهناك دائما تلك الميزة الوحيدة التي كانت تغريه ليصبح امرأة وليس رجلا، وأن يمارسها لو سنحت له الفرصة: أن يبكي!

إن الفجوة العميقة داخله، لا يملؤها سوى هذا الليل الذي يتمطى، ليحط عاريا ومتجردا على الفضاء، والسؤال البليد الذي لوح له بتكشيرة من الأفق:

"هل تسامح العالم على كل شيء؟"

أجاب نفسه:

"ما دمت متذكرا، فلن أغفر، أنا لا أغفر قبل أن أنسى، إذ أنني لا أتذكر الأشياء السيئة، إلا إذا كانت قد أماتتني مئات المرات"

لم تكن لديه أدنى فكرة عن الذي يحصل حوله، وما هو آت، فكل ما تساويه اللحظة هو حاضر سرعان ما ينصرم، فحتى كلمة الآن، لا تعني أبدا نفسها.

ولم يخامره شك بأن حياته تمر نحو شيء مؤلم، قد لا يرى الأعمى الشمس، لكنه يعرف أنها هناك، في المكان الذي تكون فيه حين تحرقه كل ظهيرة.

لم يستطع النوم!

البومة اللعينة التي تصدر صوت مواء هر، وشخير بيدرو منعاه عن ذلك، أحيانا يشتهي أن يحدث ثقبا في العالم لتتسرب منه كل الحماقة والتفاهة والرعاع والضجيج، ويحظى بليال هانئة، ونهارات سعيدة.

أخيرا... جاء الصباح: صباح جاف ودافئ.

وغادرت البومة إلى ليل آخر، وبيدرو، تحول شخيره إلى ثرثرة صباحية مقرفة:

"ما الذي تفكر به؟"

"لا شيء"

"اسمع، أنت كنت رجلا وأقدر ما فعلته، وكل الرجال يقدرون ما فعلته، أنا أقصد ما فهمته، أعرف أنك فهمت قصدي!"

"فهمت"

"أنت لا تتحدث كثيرا، ألست كذلك؟"

"لا أجيد التحدث، إنني شخص يفضل العزلة نوعا ما" انزلقت نظرته إلى نفسه

"العزلة؟ إننا نكذب على أنفسنا، لا تجعل نفسك تصدق ذلك، أنت وحيد" ضحك بيدرو، ثم أردف:

"ستأتي معي اليوم، أنت كنت رجلا، ويريد الرجال أن تكون معهم بين الفينة والأخرى، لا تقضي الكثير من الوقت مع النساء، ستصاب بالعدوى، أنت صفحة خاوية ومن السهل التأثير على أمثالك، سأجتمع مع حراس آخرين، أولئك الذين....هل تتذكرهم؟"

كان بيدرو يلح دون إعياء، ودائما ما ينهي كلامه بسؤال، حتى وإن لم يتلق جوابا، ساد صمت مفاجئ، ثم عاد ليجيب عن ملاحظة سابقة:

"لكنني لست وحيدا!"

كان كثير التشدق أيضا، وينسى في الغالب ما يقول:

"من؟ اه... أنت؟ لا أعرف، لكن هذا ما يفكر فيه المرء حين يراك"

كانت غرفة العسس التي أخذه إليها بيدرو حارة لا تطاق، وكانت رائحة النتانة والنوم والرطوبة الدبقة تغرق المكان، وكان الرجال جاثمين على أرائك متّسخة مطلسة بالعفونات، زائغين، جامحين، يرشقون في أفواههم سجائر الغليون وخراطيم الشيشة.

جلس بينهم على طاولة، حيث أزاح الأطباق والقصاع الملطخة ببقع الصلصة وبقايا الفيتوشيني، وحطها على أنقى ركن من القاع.

عرفه بيدرو عليهم: أمير، الإسكندر، أنطون.

رفع أنطون عينيه:

"يا رجل ...لا تعبأ بالفوضى، المكان مزر وفظيع"

هز رأسه بازدراء:

"لا يهم"

كان الإسكندر عابسا، كمن يستعد للانفجار:

"إذا...تظن أن المكان قذر!"

"لا أظن... بل لا شك في ذلك" أجابه

"إن هذا الساقط وقح"

قهقه بيدرو:

"ولكن حقا... المكان ككتلة خراء"

مرر الإسكندر نبريج الشيشة إلى أمير، الذي كان أكثرهم دماثة، امتصها طويلا، ثم راح يقول:

"إنه ليس وقحا، هذا الرجل صريح"

سخط الإسكندر وضرب ذراع الأريكة:

"الأمر سيان"

"الوقاحة هي فقط صراحة مفصولة عن التملق" أجابه أمير

"كفاك زندقة، دائما ما تثرثر كعاهرة"

"آخ، لن أستمع، كلامك مدهون بالزبدة"

"كنت رائقا، لكن هذا الأحمق قال أن غرفتي ككتلة براز، وهذا الفتى الجديد الوقح هنا يوافقه الرأي!"

مسح بيدرو على كتفه:

"لا تعطه وجها، ثرثار، يجعل من كلامه غاية لا وسيلة، انه لا يتوب عن حماقته، آخ، محال أن يستوي ذيل الكلب..."

قال انطون:

"سأحضر إحداهن لتتولى أمر الغرف"

"فتاة واحدة لن تكفي" قال أمير

"ليس في مقدوري إحضار الكثير منهن، أنت تعلم!"

"لكن فتاة واحدة لن تكفي!" أصر أمير

"لا أستطيع جمعهن في مكان واحد!"

ضحك الإسكندر:

"هل تخاف امرأة؟ -تجشأ-يا رجل!"

"اسمع، ثورتهن تقلقني" قال بيدرو

"ستتعب ثورتهن يوما، وتحط على الرصيف"

زعق أمير:

"اسمع، إنني أقول هذا دائما... وقول الله خير من قولي، إنني أريد المرأة لكنني لا أحتاجها، وهي تحتاجني ولكنها لا تريدني، هذ يختزل كل الأمر، أتعرفون؟ حتى ذلك النمساوي العبقري لم يستطع معرفة ما تريده النساء، إنهن لا يرغبن في شيء سوى الثورة، الثورة، الثورة"

تتبعه الإسكندر بعينيه، ثم راح يقول:

"اسمع أيها الجديد، إن ما يقال بين الرجال، يبقى بين الرجال... ستتمنى الموت إن أخبرت إحداهن أو أحد خفراء الحراسة الآخرين بما رأيت، وما سمعت"

"أنا لم أخبر أحدا!" قال، وكانت لكنته تنم عن عدم اكتراث

"لا تفكر في الأمر حتى مع نفسك... ماذا حصل؟ قتلت نفسها، ستستمر في قول هذا في كل مرة، أتفهم؟ ألا يتحدث هذا اللقيط؟"

قال بيدرو:

"يقول أنه لا يتحدث كثيرا"

سخر أنطون، وكان صوته ضاجا:

"أترى يا الإسكندر؟ إنك وهذا الفتى لا يفهمكما أحد" راح مقهقها "إنكما سقراط وأفلاطون، بيد أن سقراط لم يكتب شيئا، أما أفلاطون فقد كتب الكثير"

الشهر الثاني : يوم العيد

وسط المنفى، النساء كالملائكة المستعجلة لحدث عظيم، ممشوقات، ممتلئات، قصيرات، فارعات، ألوان التبرج الصارخة أخذت تنطفأ بفعل القيظ، كولونيا كثيفة الشذى، قبلات خاطفة، تلامس يجعل الجميع في حالة تلاحم وتماهي، نشوة زائغة، طقطقة كعاب، أصوات رخيمة، شتائم سوقية متداخلة، قهقهات فارغة، نيرفانا محضة، لوحات، خربشات، كتل من الجبس والطين والشمع، دزينات من الكتب، رقصات، جوقة، موسيقى الروك والبانك، الموشحات الأندلسية والراي، حالة فوضى.

لم يتسن له رؤية الأشياء بوضوح، المادة كلها تتخبط وتسيل وتترنح وتضمحل كهلوسة مسائية تافهة، ترعبه الفوضى، إذ يكره أن يضيع ذاته في التيه، لم يتحمل، وقبل أن ينسحب ليجد نفسه، وجدته ديهيا، تلبس فستانا من الأورجانزا بلون عاجي، ناعم، كفخذيها، انفضح وشم الأقنعة من جديد، كم كان يثير اهتمامه، كانت سعيدة وجذلى، نظرت إليه، ثم سارت نحوه:

"إنه عيدي الأول هنا... بعد كل ما يفعله بنا الأوغاد، يمسحون سكاكينهم على جلودنا، أتصدق؟ يا الرب.. كما تقول ثيوفانا: كف وحب حلوة.. لكن لا بأس، المهم أن يضحك المرء في النهاية"

لم يرتح قلبه:

"ماذا تقصدين؟"

قالت بلكنة مترددة ومقطعة:

"لا أدري، ذلك اليوم، في المسرح حين قتلت تلك الفتاة نفسها، أفكر في الأمر أحيانا كثيرة، الأبواب كانت مغلقة، سمعت أن الحراس أغلقوها حتى لا تعم الفوضى، ولكن من يدري؟ لا بأس، ألم تكن في الخارج وقتها؟ لا يهم، المرء ينبسط الآن، لم يعد يهمني شيء"

لم يرتح قلبه مرة أخرى، يغلي عقله في الريبة:

"يجب توخي الحذر دائما"

"آخ صحيح، لا يقتلنا شيء عدا أنفسنا"

جاء صوت ثيوفانا موبخا من بعيد:

"أيها الحارس، ألن تدخل وتفسد الأمر؟"

أسكتتها ديهيا بإيماءة خفية، وحين قطبت جبينها، تراءى له وجهها عنيفا فاحش الملامح، ذا جمال مسكر، لكن تبدد ذلك الانطباع بمجرد أن تراخت ملامحها مجددا وعاد وجهها إلى ذلك الدافئ والشهي.

تساءل: "كيف للمرء أن يستحيل إلى جسد غير جسده ووجه غير وجهه؟"

لم يكن يرغبها من بين كل تلك الأجساد والأشياء التي تتقزح، مستحضرا شيئا رابضا فيه، فكرة عويصة:

"صحيح، كان كونديرا محقا حين قال أننا لا نتجسد من خلال الإيماءة، بل هي، التي تتجسد من خلالنا في كل مرة..."

تغلغل في وسط الغوغاء، بدت كل الأشياء التي رآها من بعيد، جميلة عن قرب، واستحوذه شعور عاطفي، حتى تناسى أنه محاط بأجساد نجسة كثيرة، رافقته ديهيا، وراحت تلاحق وجهه بالكاميرا، أبدى انزعاجه في بادئ الأمر، ثم اعتاد ذلك ...

كانت الأعياد والحفلات تزعجه، يجدها ذلقة، ومزعجة، ومليئة بالترهات، حيث لا يتمالك البشر أنفسهم في وجود الحماقة، إذ أن التفاهة الفجة معدية، ولا يفلت منها أحد.

أخذته ديهيا إلى طاولة من الطاولات الجانبية، وراحت تريه مجموعة من الصور التي كانت تلتقطها في الخارج، أعجب بها جدا، كانت متنوعة وغريبة، إنما ذات طابع واحد: بحار وزوارق، معابد، بنايات، عيون عربية ترابية، وجوه صفراء وقديمة عليها وشوم رماد رديئة، زرابي مزخرفة، طاولات دومينو، أزقة، شفاه دموية... إلخ

كانت خليطا جميلا من الأشياء العفوية والمشبوبة واللحظات التي لا تستلفت نظر أحد.

مررت باباس إليه سينية حلوى، موسكوتشو، قرن الغزال، فطائر التين، أصابع بقلاوة، مقروط.

لم يكن يشتهي شيئا، كانت معدته تأكل نفسها، لكنها أصرت على أن يأخذ عصير الرمان.

"أتعرف شيئا عن هذا العيد؟" سألته أليكْا

أجاب نافيا

"نتبادل فيه الأشياء، أشياء فنية "

"هل يوافق الحراس على هذا؟"

"إنهم لا يهتمون البتة، يقولون أننا مجنونات"

"ولكن..."

"كف وحبة حلوة " جنت ديهيا بعبارة ثيوفانا، كانت تكررها عشرات المرات: كف وحبة حلوة كف وحبة حلوة كف وحبة حلوة... سم في عسل.

أخذته أليكْا من سترته:

"تعال أريك شيئا"

وحين تبعها، راحت تهمس:

"أعرف أنك تستغرب، أنا أيضا تعجبت، كيف لكل هذا أن يحصل دون أن يعترض أحد، لكن من يأبه الآن؟"

"ألا تعتقدين أن لك الحق في الحرية؟"

"تلاشت تلك الرغبة، مع الأيام، نصير كنمور السرك المروضة التي تنسى ضراوتها الحيوانية"

"لا تريدين الحرية؟"

"ليس بطريقة رخيصة لا تساوي قلامة ظفر"

مرّت ثيوفانا ساخرة:

"ستموت عبدا يا نرسيس"

استرسلت أليكثا:

"سألقي قصائدي الآن..."

انزوا عند شجرة زيتون مسندا رأسه إليها، كانت عين الشمس الحمئة تجعل الدنيا هزلية ومجنونة كالهذيان، وفي كل فرصة تتاح له، كان يدخن سيجارة، فيما كان يسلخ ساعاته متململا في انتظار شيء ما، تماما كما انقضت جل أيام حياته البائسة.

رقص الفتيات جعله يتخيل عالما بلا رجال، كيف سيكون الأمر يا ترى؟

لن تتحمل الأرض أكثر من عشرات الأعوام لتنهار كتربة أخذها الدفق، لا يمكن لهذه المخلوقات البضة والساذجة أن تحكم الأرض وتستمر فيها، ولا يتعلق الأمر بالتناسل أكثر من كونه يتعلق بضعفهن وحماقتهن الشديدة.

لم يكن جواب ديهيا مماثلا حين سألها عما سيؤول إليه العالم النسائي المستحيل، تنهدت قبل أن تكتفي بقول أن الأمر سينتهي كما ينتهي عالم بشري بدون حشرات نحل.

لم يدفعه جوابها إلى التفكير، بل إلى الضحك، ما هذا التبجح الذي يدفعها لتشبه مخلوقا نجسا بكائن مقدس كالنحلة العظيمة؟

في تلك الأثناء عادت أليكثا تتأبط قصائدها، وطفقت تخبط طاولة باباس مما جعل الأكواب وصحون الحلوى تصطك:

"ليس من المعقول أن تمنعني ثيوفانا من إلقاء شعري... عاهرة، عاهرة"

أظهرت باباس ابتسامة دافئة:

"خذي مكاني في مسرحية العصر، لست جيدة في التمثيل على كل حال"

ارتعشت أليكثا كشظية جمر:

"تغيظينني أيتها البقرة؟ تعرفين أن زيك لا يناسبني...بقرة"

صفعت ديهيا أليكثا بسبب رعونتها، فوصفتها بالقوادة، لذا انسحبت هي الأخرى حزينة وبائسة وامتدت إزاءه تحت شجرة الزيتون.

"أظنني سأشارك في مسرحية العصر" قالت ديهيا

"أيناسبك زي باباس؟" أجابها

"لا"

"إذا ؟"

"اسمع، فكرت أن تعيرني ملابسك حتى نهاية اليوم!"

"هاه؟" أصدر صوتا كالحشرجة

فسرت:

" الدور دور رجل!"

"وأبقى عاريا؟"

"آه صحيح، أعطيك ملابسي؟"

لم ينبس ببنت شفة، استرسلت:

"تمانع؟"

"لا أمانع في الحقيقة، بل لا أكترث البتة، المهم أن لا أبقى عاريا"

"أهذا ما يقلقك؟ ألا يزعجك أن تلبس فستان امرأة؟"

"إن في وسع المرء أن لا يكترث لأي أمر من الأمور، ولكن ليس في وسعه أن يبقى هكذا، لحما، كما خلقه الله"

ابتسم، وابتسمت أيضا:

"اللامبالاة شلل الروح"

الشمس لاصقة في كبد السماء، ورائحة القائلة ما تنفك تزداد ثخانة وثقلا، العشب الغدق يبلل فخذيه الدافئين من الأسفل فيما كان ينظر إلى نفسه في الجزء الضحل من البحيرة، شعر ترابي شعث، حاجبين أسودين غليظين، عينين بلون محيط لازوردي بأهداب كثيفة قاتمة، شفاه وردية ككرمة جهنمية، ساقين طويلتين كرفناء الحدائق وقدمين غريبتين كقدمي مسخ، تلمس قماش الفستان حتى اهتدى إلى جلده، تشمم نفسه، رائحة لحم يتفصد عرقا، ورائحة امرأة لذيذة، إنما موبوءة بالجنون والثورة والإنسانية.

ابتسم لنفسه ابتسامة ضيقة:

"كيف يستحيل المرء إلى جسد غير جسده؟"

أهو صحيح يا كاميلو خوسيه؟ أيعقل أننا لو انتزعنا عن الإنسان الظل والذكرى والجلد، ما تبقى منه شيء غير القليل؟

سؤاله يكبّله، يمنعه من أن يكون، والجواب مفاتيح لا تحل له بابا غير باب العودة إلى نفسه، يا ترى هل يحمل في عريه الإجابة؟

ناجى نفسه:

"ما أحوج المرء إلى جسد آخر يصيره، حيث لا يعرفه فيه أحد، ويعيش مرات عديدة حيوات عادية، لا يحتاج فيها إلا إلى تراب العالم وفجوة سحيقة يدفن فيها ما كان عليه، وأن يموت ...يموت مرات لا تنتهي"

في تلك الأثناء، أمسك الحراس ديهيا في طريقها إلى الحفل، أماتوها ضربا بهراواتهم، لكنها كابدت كالفولاذ رغم عودها الأهيف، أخذها أمير من شعرها ومسح بها التراب والحصى، وانتزع عنها ثيابها المعفرة قطعة قطعة، وطفق يفتشها، تلمس شيئا صلبا وناعما حين دس يده في جيب السترة :

"دمية لعينة ؟" تفحصها "دمية روسية "

"ماتريوشكا!" جأر بيدرو

"يا الرب، لمن هذا الخراء؟"

"أعرف لمن تعود"

"صح؟"

الفتى الجديد"

"أمتأكد أنت؟"

"بلى، رأيتها عنده مرات عديدة"

أخذها أمير من شعرها مرة أخرى، وراح يصفعها حتى لاح الموت في عينيها، فتركها تهوي مجددا، لا قوة لها ولا حيلة

" هو من أعطاك ملابسه؟ "

"لن أقول، لست قوادة أمك" قالت تتأوه وكان صوتها أجشا مبحوحا

"مسترجلة عاهرة -بصق- عاهرة!"

استشعر أمير أن ضربها ليس منه بد، فمضى وبيدرو يحثان عنه بنفسيهما، خمنا أنه في الحديقة بما أنهما وجدا ديهيا في الطريق الذي يفضي إليها.

"إنه صغير، ونقي كصفحة بيضاء، لقد أصابته العدوى، بل أحمق وبليد من يتبع امرأة، لا يدري مغبّة الأمر" قال أمير

"الحق أنه لا يتحدث كثيرا، ولكنه حاذق ورصين، يعرف ما يفعل"

"أوتظن ذلك؟... سنرى"

"تلك العاهرة لعبت بعقله، مسكين ... ستتشمت فيه الآن"

"نعم من المخجل أن تكون سعادة الواحد في مآسي الناس"

"لماذا تتستر عليه إذا ؟"

"هذا ما يغضبني، ويرمي في نفسي حيرة" ثم أردف:

"لن أقدح الزناد حتى أعرف أنني أصيب الأمر في قلبه"

سأله بيدرو

"ما معنى هذا؟ إلى ماذا ترمي"

"لا شيء"

"هل تشك في أمر؟"

"بلى...خوفي أن يكون قد أخبرها بما نخفي، وتلك هي الكارثة"

"الكارثة أن يعرف الجميع الحقيقة، تلك هي الكارثة، أما الآن، فالأمر في يدنا نحن مادام متعلقا بواحد واثنان"

"ولسنا متأكدين بعد"

"نعم، و لسنا متأكدين بعد"

اشرأب عنق أمير ليكون في مقدوره الرؤية، حينذاك تراءى لهما عند البحيرة، امتقع وجهه، وارتعشت شفتاه امتعاضا ولاح على وجهه السخط والاهتياج، هو ذا أمر لم يسبق أن رأوه من قبل، جنون...هبال

قال بيدرو :

"لقد جن!"

و سار نحوه بخطوات واثبة كضبع مسعور:

"هل جننت؟ ما الذي تلبسه؟"

فجعل يقف ويلملم أطراف الفستان الذي صبغ بلون العشب المخضر، وكان قلبه يخفق في صدره مجنونا:

"فستان!"

"بربك! ألم يعلمك أحد كيف تصبح رجلا؟"

"هل تفضل أن تراني عاريا لتقول عني رجلا؟ ما هو الرجل بحق الله؟"

كان في صوته شيء من المبالاة، كأن كلماته تعني نفسها هذه المرة، وليست مجرد لغة تحمل احتمالات عديدة، بل هي لغة نتنة، تحمل رائحة الحقيقة.

الفصل 5

حين فتح عينيه وجد نفسه في مكان بارد وعار، لم يكن يفكر في شيء سوى العدم والخواء، وهذا غريب بشكل يدعو إلى الاستهزاء، حاول أن يستوعب الأمر الذي حصل، ولكن، لم يبق في ذهنه شيء سوى صورة قبضة بيدرو وشذر العقد الذي تطاير بمجرد سقوطه على الأرض المعشوشبة، كان ذلك آخر ما رآه، نظر إلى يديه، مكبلتين، وهذه ليست ملابسه نفسها، بل تفوح منها رائحة معتقة، ولا شيء في الغرفة يمكّنه من طرح سؤال سوى عمود تتدلى منه سلاسل وأحزمة جلدية وأسواط و... ديهيا، كانت دائخة

"ديهيا؟"

جفلت، فتحت عينيها ببطء، كانت نظرتها باهتة وصوتها ثقيلا مكتوما:

"أنت؟ أين نحن"

"لا أدري"

"ما هذا المكان؟"

"قلت لا أدري"

"منذ متى ونحن هنا؟"

"أعتقد، يوم...ربما بضع ساعات لا أعرف"

"لا تعرف شيئا؟ هل هذا حبس؟"

"لا جدوى من المعرفة، الأمر برمته لا يستحق عناء السؤال حتى، إنه واضح..."

"اسمع هذا لا يفيد هنا نحن متورطان أتفهم؟ معا، أنا وأنت في ورطة"

"أعلم، ولست آبه"

كشرت عن أسنانها ساخطة:

"لا أفهمك ما الذي يهمك إذا؟"

ثبت نظره عليها، وابتسم ابتسامة سخيفة في حين كان حزينا وحائراً إزاء لامبالاته المقلقة

"ما خطبك؟ فيم تحدق؟"

أطرق برأسه، ثم قال:

"أخشى أنني.."

"ماذا؟"

أشاح وجهه، وقلب نظره هنا وهناك

"لا شيء"

ألحت:

"قل ماذا؟"

لبثت تنظر إليه متوقعة إجابة ما، لكنه لم ينبس بكلمة، وفي تلك الهنيهة دخل الغرفة رجل عريض الكتفين عبر الباب الحديدي الواطئ، وكان ثمة شيء ما في عينيه الناعستين يوحي بالضراوة والبربرية، أخذ يرفع الباب الثقيل مرة أخرى ليدخل بيدرو، ثم ارتد على أعقابه وعاد إلى الخارج مترنحا.

رمق بيدرو كلاهما بنظرة ازدراء، ثم زم شفتيه الثخينتين وأنشأ يقول:

"انظر إلى أين أوصلت نفسك... على كل اللوم بعد القضاء هرطقة، اسمع الآن، هناك طريقة واحدة ... أتريد الخروج؟"

لم يشأ أن يجيب أو يعرف، فكر قليلا ثم قال بنبرة حادة:

"أنا لم أفعل شيئا حتى!"

"يا إلهي! بحق الله؟ لم تفعل شيئا؟" وراح مقهقها

"ما الذي فعلته إذا؟"

"هل رأيت رجلا بعقله يلبس ملابس نساء من قبل؟ أنا لم أفعل، غير أولئك الــ ... " بصق، ثم استأنف كلامه:

"كما قلت يمكنك الخروج ..."

قاطعه:

"أخرجني إذا!"

"يجب أن تصبح رجلا أولا"

"هاه؟"

"لا تحسب أنني غبي حين وضعتك معها في نفس المكان، أنا أعرف، أعرف جيدا أنك فعلت ما فعلت، وسينتهي الأمر هنا قبل أن تعم الفوضى، أنا لا أخطئ لا أخطئ"

"و لكن، لست أعرف، ما علاقتها بي؟"

"أليست سبب مصيبتك؟ إذا هي برهانك"

"برهان ماذا؟"

"رجولتك"

"أنا لست رجلا؟ كيف؟ لا أفهمك؟ أريد أن أخرج الآن"

"لنقل أن الأمر منوط بك، آن بك أن تقرر... ولنفترض أنك ستتعفن هنا معها إن لم تفكر جيدا"

غادر متمتما بينه وبين نفسه:

"إمعة... تافه"

كان سقف الآجر والقصدير يسد في عينيه شهوة الموت، الوقت لا ينقضي أيضا، يا للسخف!

"مصابون بالوقت أولئك الذين ينتظرون" قال في نفسه

تنهدت ديهيا حزينة، نظر إليها ولم يشح وجهه:

"ما معنى كل هذا؟ ما الذي تعنيه حياة المرء؟"

"لا يجدر بنا التفكير في ذلك" قالت بعينين مغلقتين

"ألا تتساءلين أحيانا؟" قطب حاجبيه

"بلى ولكن لا ينبغي للواحد أن يسأل عن معنى حياته بل أن يعيشها، ألا تظن ذلك؟"

"ليس الأمر سهلا" قال

"ليس مستحيلا أن تعيش!"

"لا، ليس مستحيلا" سكت قليلا، ثم أضاف:

"معظم حياتي ضاعت مني، هي قليلة الحياة التي عشتها"

فتحت عينيها إذ رأت في كلامه شيئا من المبالغة:

"اسمع، وحده الله يعلم عدد الذين يعيشون من بين كل هؤلاء الأحياء حولنا"

"ألا تعيشين؟"

"أحيانا...بتّ تهتم؟"

"أحيانا " قال ساخرا

ابتسم، وابتسمت

"متى عشت؟ "

"فيما مضى كانت الموسيقى تجعل إنسانيتي مفرطة الوضوح كجثة جريحة على ثلج سقط للتو، الكتب والأشعار واللوحات تحقن في ذاتي حياة رائعة لا تعنيني، أنني شخص خاو الآن، ولدت لأموت، تبدأ متاعب المرء حقا حين لا يستطيع أن يبقى وحيدا برفقة نفسه"

"أنت تكترث لكل شيء، ألست كذلك؟ لمَ تتظاهر إذا بلامبالاة مزيفة؟ حسنا، إنه فقط تخمين، تفكير محض"

"تتفوهين بالحماقة، إنما حماقتك مدهشة!" ألقى نظرة لا تخلو من نخر

"لدي هذا الشعور داخلي، شعور أقرب إلى الإيمان، أنت تهتم، هذا في عينيك، ألا يقولون أن العين لا تكذب؟"

"هراء، أنا قلت ترهات دنيئة لناس نظرت إليهم في أعينهم"

"لا يمكن لهذين الزجاجيتين إخفاء سر ما"

اختزل شجنه في سكوت حزين، ثم سأل:

"أحقا؟"

لم تدل بجواب، ذلك أنها أغلقت عينيها مجددا، ساوره شيء من القلق الضروري الذي ينتاب أي شخص في مكانه، إذ أن لكنتها التي قالت بها ما

قالته باردة ولا تعطي ما يكفي من الانطباع ليعرف المرء ما كانت تقصده، هل هو كلام حرفي واضح أم تلميح رديء من نوع ما؟

ما انفك يتساءل:

"هل تعرف بالفعل أنني أخبأ شيئا؟"

عقب ذلك صمت مقلق، وحين فتحت عينيها، سألها عن جنونها في السابق، فراحت تقول بصوت خفيض :

"كانت تلك الأيام الممطرة البعيدة، عندما لم أستطع الذهاب إلى المدرسة لأسابيع طويلة بسبب الدفق والحمى، أتذكر أن أبي حاول جاهدا إعادتي إلى المدرسة هناك خلف الوحل والردغة وقعقعة السكك ولكن... أراد مني أن أصير ما لم يقدر هو عليه، وهذا نمطي، لم أذكر أن أبي كان تاجر خردة؟ ذات يوم أحضر صندوقا من الشمال إلى الدار، الله وحده يعلم سبب تفتيشي لما أحضره يومها، كل ما وجدت هو كاميرات قديمة من الطراز الأول الرخيص، لنقل أن تلك كانت البداية، وفي يوم ممطر من شتاء آخر، كنت أصور عرسا، كما ترى، القوادون؟ في كل شبر من القرية، وعندها جرتني أمي من شعري إلى الحوش، كانت ليلة سمعت فيها كلاما كثيرا يشبه (ما الذي سيقوله الناس ؟) و(عندما تسقط البقرة تكثر سكاكينها).

لكن الأمر بطبيعة الحال لم ينتهِ عند ذلك الحد، بل عرفت أن لي وشما في الفخذ، وآخر في الكتف، وترامى إلى سمعها كلام كثير على نحو طائش، مثل أنني كنت أذهب إلى المدينة، إلى دير السينما وقاعات المسرح، والأوبرا

و... بلباس ليبرالي يظهر العورة والمفاتن، كانت العيون مزروعة في كل مكان، فالدم يربط الجميع بالجميع هناك، وحين انتفخت القصة كالذرة، أراد أخي أن يزوجني من أي رجل قادر على تربية عاهرة لتخليص ما تحت سقف الدار من العار والفقر، ثم... في تلك الليلة هربت، أمسكوني وأنا هنا الآن، الأيام الحزينة لا يمكن أن تصبح قصة جيدة إلا إذا نجحت في تجاوزها، قلت لنفسي... الآن أنا هنا، امرأة مجنونة"

"أنا أيضا لم أذهب إلى الجامعة، قرار اتخذته بكياسة" قال

"لكن كان في مقدورك الذهاب، لا يزال في مقدورك هذا"

"إنها لا تفيد في شيء، على الأقل في حالتي، أليست نوعا من الدكتاتورية الاجتماعية التي يمارسها الناس على أنفسهم والآخرين؟ كما أنها حرفيا مضيعة للوقت"

"هذا تفكير طفولي متخلف ومتطرف"

"كلا، بل تفكير صائب"

"إذا كيف انقضت حياتك؟"

"لا أدري، أيام تكرر نفسها، أسئلة عديدة، أفكار مجهضة...أخذت من الدنيا ما أخذته الريح من الصخر"

"لا تدري؟"

"لا جدوى من كل شيء، أتساءل دائما وثم؟ وثم؟"

"هل تؤمن بشيء؟"

"الله؟ " حملق فيها بعينين جاحظتين

"كلّا أريد الخوض فيما يتعلق بذلك النوع من الإيمان"

قال:

"إن الدافع وراء الاهتمام الشغوف بشيء ما يكمن في أنه يختزل العالم إلى حجم يمكن التعامل معه، لا أستطيع إيجاد هذا الشيء، هذا لا يعني أنني لا أهتم، هذا يعني فقط أنني تائه"[2]

"إذا أنت تهتم؟"

"ليس بشكل كاف"

"لا يهم... في الغالب يصعب على المرء تفسير الأمور الواضحة"

"ليس كلامك بذلك القدر من الوضوح حتى"

"ليس ضروريا أن نجد ما نؤمن به، أحيانا نحتاج بدورنا إلى ما يؤمن بنا، إن ما يبقينا أحياء هو الإيمان، كما لو أنه الهواء، أن تؤمن بالإيمان"

---

2. فكرة من فلم adaptation

بعد وقت ليس بمعلوم دلف أمير داخلا عبر الباب المنخفض على حين غرة بشكل هادئ إنما مجفل إلى حد ما، كان مدثرا في حجاب أسود، استبد به الضحك عندما رآه على تلك الحالة الفظيعة، وراح يداعب السلاسل والأسواط المتهدلة المصابة بغبار خفيف على الجدار بأصبع سبابته على نحو مستفز، عرفته ديهيا من شكل جسمه ووقفته، كانت تلك المرة الثانية التي تراه فيها، طفقت تتخبط وتتلوى محاولة تخليص نفسها من الجدار بكل ما أوتيت من جهد:

"ابن الق..."

نزع سوطا عن العمود وضربها به إلى الوجه فأغمي عليها فورا في تلك اللحظة.

"انظر إلى نفسك أيها المخنث العاهر" قال أمير

لم يكن في مقدوره إبداء أي ردة فعل، كان في وسعه فقط رفع عينيه الزائغتين والحملقة طويلا دون أن يرمش له جفن، كرر أمير ما قاله:

"مخنث قذر" سعل، ثم استرسل "لن أطيل الكلام نخيره ما قل ودل، ستقتلها وإلا قتلتك أنا" وأزاح الحجاب عن حزامه فكشف عن شيء براق، فلذة سكين.

امتقع لونه، ودمدم بصوت لا يسمع:

"أنا أموت بالفعل"

خلصه أمير من وثاقه، ورمى السكين على مقربة منه وانتظرها حتى أفاقت ليجعل من قتلها مأساة شنيعة يعذبه بها إلى الأبد.

"هذا هو سبيلك الوحيد إلى الحرية" قال

لكنه لم يجرؤ على حمل ذلك السلاح بل لم يتحرك مسافة شعرة واحدة اتجاهها، تلكأ، وظل على تلك الحال طويلا إلى أن نفذ صبر أمير الذي اهتاج فأمسكه من رقبته دافعا إياه على الجدار وضغط بمسمار صدئ على عنقه أنه إن لم يقتلها فسيسلخ لحمه عن عظمه، ووضع في كفه اليمنى السكين وراح ممسكا برقبة ديهيا حتى صارت مشدودة من الوريد إلى الوريد، نظر إليها في عينيها، كان شعوره مضطربا في نفسه كالجنون إنما كان متأكدا بشأن أمر واحد: أنه لن يعدم هذه الأنثى، لن يطفأ هذين العينين مهما كلفه الأمر.

ألقى السكين أرضا وخر على ركبتيه منهارا ثم مسح وجهه بكفيه وتحسس جسده غير عارف إن كان قد أصاب أو أخفق، كان يقول في نفسه:

"لم فعلت هذا؟ هذا أنا، الذي حتى نفسي لا تعني لي شيئا"

تم إخراجه بعد الذي حدث، وتم حجزه في غرفة لم يكن فيها سواه وبيدرو وهذا الفضاء بينهما يملؤه الصمت الزخم، ماذا يمكن للمرء أن يفكر أثناء هذا سوى الموت، أليست تساوره كما تساور الآلهة جونو كل امرأة رومانية في ذلك الزمان البعيد الذي مضى حيث يولد الإنسان وينتظره بالفعل شيء نبيل ليؤمن به، طالما تلك ليست مسؤوليته الخاصة، وكما هو متوقع، يعيش حياة لا تحمل الشقاء ومعضلة العدم القاسية.

انتصب جسد بيدرو كما لو كان متشنجا، نظر فيما حوله ثم قال وقد استقر بصره عليه:

"أن يكون الرجل مخنثا، هذا أمر لا يجدر للمرء أن يشعر بالفخر حياله" أشعل سيجارة نعناع من النوع الرخيص، وأخذ يعبث بعلبة نشوق مشكلا دوائر في الهواء.

عشرون دقيقة لم تكن قد انسلخت بعد عن آخر كلمة قد قيلت، إلى حين لم يعد هناك صبر لتحمل هذا الصمت الممل، قال بيدرو مجددا بشكل مختصر:

"هناك صندوق في آخر الردهة، احرقه"

كان صندوقا من الكرتون المبلّل الذابل، بجانبه ولاعة بحجم البنصر، فتناولها وهم بتمزيق جوانب الصندوق لفضّه، كانت محتوياته كل ما كان على طاولة الحفل تقريبا، بعض الصور الملفوفة في شريط فيلم ولوحات وكتب مغطية بخرقة من سروال جينز ربما هو لثيوفانا، ودمية الماتريوشكا خاصته

تسللت بعض الحيلة إليه فهو بالطبع لن يجرؤ على حرق هذه المادة المشبعة بالحلم والماضي والهوية، وتردد صوت أنفاسه في الأنسام لبرهة، ثم أخذ قرارا حاسما: أنه سيخبئه تحت شجرة السرو.

الكثير من الأيام صارت الآن في الماضي، لا يعلم أحد ما هي الخطوة التالية، على الأرجح، لم يسأل أي شخص عن الصندوق الذي لم يقم بحرقه،

كانت الأمور تسير بشكل هادئ إلى حد أن يشعر الواحد بالقلق ويشك في هذا الخدر الذي أصاب العالم ويتساءل عن العاصفة التي ستأتي بعد هذا السكون، ولكن حدث في ذلك اليوم من عشية خريفية قد يخيل للمرء أنها يوم صيف أمر مريب، كان مستلقيا على أرضية الغرفة الإسمنتية محملقا في سقف البلوط الذي ليس يشبه بالطبع سقيفة كنيسة سيستينا، دخل بيدرو وقتئذ وصفق الباب بعنف خلفه، وقال:

"هل أحرقت الصندوق؟"

"نعم"

"أين؟"

"في الردهة" نهض وعدل جلسته

"هو كذلك؟"

"لماذا أخرجتني؟ لست مضطرا إلى هذا" قاطعه

"أنت تشعرني بالغثيان، لم يكن أنا من أخرجك بل تحتم ذلك "

"ماذا عنها؟"

"ليس هذا شأنك"

"بلى"

"سيتم ترحيلك"

"ماذا عنها؟" أصر

نظر بيدرو إليه شزرا:

"لا لم نقرر بعد"

"أنا لن أراها مرة أخرى؟"

"لن يكون هذا في صالحك، فنحن لسنا نعلم إلى حد الآن ما الذي حصل بينكما، إنما أنا شبه متأكد أنك لم تخبرها السر الذي بيننا، على الرغم من أنني لم أعد أجدك رجلا لكلمته"

"ولماذا لا تشك في أمري ولو بضعا من الشك؟"

"لو كان هناك مجال للشك لكنت الآن ميتا، هي ليست ثقة بل حيلة، إنها فطنة"

"إذا الآن بات هناك سر آخر"

"لهذا سترحل عن هنا"

"أريد أن أراها لآخر مرة"

"لأية غاية؟ كلا، لا أعرف ما الذي تسعى إليه لذا لن يكون هذا ممكنا "

"إذا متى أغادر؟"

أشعل بيدرو سيجارة أخرى جعلها ترتجف بين أصابعه، ثم سار نحوه وتشبت به وأخذ يلامس وجهه براحة يده ناظرا إليه بعينين مجنونتين مفعمتين بالمكر والقسوة، قال له:

"يا له من وجه جميل الذي عندك" كان فاغر الفم، وشفته مدلاة، وكذا لعابه الكثيف يتقاطر

فتراجع هو إلى الخلف مرتاعا ومنزعجا والاضطراب باد على وجهه، وفيما ذلك تابع بيدرو الاقتراب منه حتى أضحى لصيقا بالجدار الذي لم تكن نافذته موصدة فقفز منها وتمكن من الفرار إلى الردهة ثم إلى الخارج، وكان الجو ما يزال دافئا وراكدا.

لم يدع الحظ مجالا للشك في أن بيدرو لن يمسك به، ففي تلك اللحظة التي قفز منها عبر النافذة ركض بيدرو إلى الباب وهو يتخبط ويترنح هنا وهناك، إلا أنه قد تمكن من اللحاق به في آخر المطاف، وحين اقترب من الإمساك بذراعيه المرتعشتين التقط حجرا وضربه به إلى الصدر، وهناك أدرك أنه قد أغمي عليه، فقام بجره إلى الداخل، ولحسن حظه هذه المرة فإن الأرض كانت زلقة ورطبة وصالحة للقتل.

مرت ليلة يائسة، وكان بيدرو بعد ذاك قد أفاق، كان يقول بصوت هامس ثقيل وحزين:

"قبل أن تقتلني، إن كنت تنوي ذلك، أرجوك أكتب ما أقوله لك وأرسله لزوجتي، أخبرها أنني أدين لها فقط بنهاية"

كان من المفروض أن يعطي الورقة إلى أمير أو أحد رفاقه لكن الأمر لم يسر على ذلك النحو، ففي اليوم التالي تم اصطحابه إلى البوابة لإخراجه، وكان من أخذه رجل لا يعرف شيئا عن الذي حدث، وفيما يخص ذلك، فقد سلمه الرسالة على أية حال دون تردد، وحين فتح الرجل الورقة من باب الاحتياط رفع عينيه ونظر إليه مطولا كما لو اتضحت له بعض الأمور ثم قال:

"لا يمكن أن تكون هذه من السيد بيدرو الذي أعرف، هناك خطب ما"

"بلى إنها من عنده، هو عاجز وليس في مقدوره تسليم هذه الورقة بنفسه، إذ أنه موبوء"

"لا ليس بذلك الشأن، ولكن الرسالة في حد ذاتها غريبة، لماذا يرسل السيد بيدرو رسالة إلى زوجته؟"

"يقول أنه يحبها"

"أنت موهوم، ربما... الذي تعرفه عنه هو شيء قليل" أصدر صريرا بأسنانه

"هيه!" هز رأسه نفيا

"زوجته ميتة" وضع أصبعيه على شفتيه واسترسل "هو قتلها دونما رحمة"

الجزء الثاني: بانوراما

الفصل 1

هذا البحر المبعثر دماء لنا إنما غريق ومشرد، وهذه الشمس المعلقة كئيبة لا تجيد الظل، وهذا الخريف الحزين يحرض كل شيء على الانتحار حتى موعد آخر من الربيع، فتصير الأرصفة مضرجة بأوراق الشجر المشذبة وأضواء النيون ويافطات الطوفان.

العاشق في الجزء الآخر من البحر وحبيبته الرائعة ذات جمال لامعقول من النوع الذي يغلق عينيه حين يبتسم، كان ينتظر موعد الشمس مع عينيها وحين داعبها ابتسمت، وفاته الموعد.

أينما نظرت، هناك شيء ما لتراه، الجالسون المارة جرائد أرهقتها أقدام العابرين، شاب يدوزن قيتاره الأكوستيك، قطط شبقة، أعلام زائفة، الطلاب المشاكسون المعتادون الذين يمرون بهذا الشارع في هذا الوقت الضاج من اليوم، مع كل هذا الرعاع يشعر المرء بوحدة مفرطة إذا أمكن القول مدينة جميلة ولكن هو أمر مرير أن يعرف الجميع ولا يعرف الواحد الآخر.

الجريدة ملفوفة في يدي لكني لم أقرأها بعد، فلا أتوقع أنني سأقرأ ما يبهج مزاجي المحتد إزاء ذلك، ولست أنتظر أن أجد ما أتوق إليه كل صباح من كل يوم (أنا بيسان ولسا عايشين)

إن ما يعرفه الشخص عن نفسه لا يتجاوز معرفته بالآخرين وليس ذلك فحسب، بل إن الإنسان يكتسب قيمته ممن حوله، هو جزء لا يتجزأ من العالم

مهما حاول التفكك والتمرد، معرفتي عن الحياة في أدنى مستوياتها، أنا فنانة، هتلر كان فنانا، بدأت أخاف نفسي.

و الحق أنني أشعر بنشاط طفيف إذ أدركت أن ما نعرف أنه حقيقي قد بدأ في الرواج بالفعل، ولو بشكل ضئيل، فخلافا لما كان شائعا في الماضي حيث يلوم الناس الاعتماديون جهة واضحة تكون هي مصدر الدغمجة، صحافة أو إعلاما أو مثقفا مؤثرا، إنما الآن فالإنسان ضائع في عالم مشتت بالبهرجة والزيف، وحيث أنه المسؤول الأول عن حياته يستسلم للمفهوم الراشوموني للحقيقة، فمن يلوم بعد تدمير الأمور التي حسب أنها مسلمات غير نفسه ذاتها التي تجرعت تخمة بصقها الآخرون في الأعلى، أنا إنسان حديث جعلته هذه القضية غير الحديثة يولد من جديد، فما الذي من بين كل ما أخبروني به حقيقيا؟

فتحت الجريدة، قلبتها لأقرأ الكاريكاتير الهزلي الرديء على الغلاف وعلي الاعتراف أن الحقيقة التي سمعتها على شكل كوميديا كانت أكثر منطقية من التي تلقيتها على صورة حقائق.

طويت الجريدة عدة مرات وحين مررت بصندوق القمامة ألقيت بها فيه.

أعاني عسرا في القراءة، والتعاسة التي أشعر بها أقرب إلى الغثيان، يغمرني إحساس عميق بالغضب والذنب كما هو حالنا جميعا، وقبل أن أكون هنا في الشاطئ كنت قد شاهدت فلم "التكيف" بعد أن اعتراني فضول جنوني لمعرفة

كيف يتخلص الكتّاب من عقدة الكتابة، وكان فلم سبايك جونز هو الاقتراح الأول على القائمة والذي ساعدني لسنوات في معالجة تلف خلايا الشغف في بين الحين والآخر.

ولا أنكر أن الغضب كان مصحوبا بالسخرية، فما كان انقطاعي عن الكتابة نتيجة انعدام الإلهام هذه المرة، بل لأنه تم التخلي عني، واستبدلت بآلة ذكية يزعمون أنها قادرة على توليد نصوص شاعرية واضحة العاطفة ونقية، يا لبؤسهم! كم أنا خجولة من نفسي.

تابعت السير عبر الشارع الرئيسي وأنا أشعر بالحرج والعار راسمة ابتسامة متكلفة على وجهي، لا تروقني مع ذلك مقاهي هذا الشارع المملة، يتهافت عليها مثقفون مزيفون كثيرون، وأيضا هي على قائمة المقاطعة، أبديت ابتسامة شقية وأنا أنعطف عند الرصيف الأقرب فوجدتني في ممر ينتهي بكافيتريا محلية رخيصة، بوابتها نصف مغلقة وبعض بلاطاتها الشطرنجية مخلخلة على نحو مرح، وليس ثـمّة نادل أو خدم، بل على المرء أن يخدم نفسه بنفسه.

كان مزاجي يسمح بالانضمام إلى أحد الطاولات ومشاركة نفسي بعض الشباب الذين كانوا في نفس عمري تقريبا، بقصات شعر البانك المدهشة والشاذة والسترات المتفتقة بلا أكمام وأحذية رعاة البقر التي توحي بشكل ما انتمائهم إلى مجموعات المنبوذين أينما يرحلون، حتى اتضح لي بالفعل، أنهم كذلك.

بدأت الأحاديث تتالى والأفكار تغلي، تحدثنا في بادئ الأمر عن مواضيع تافهة وسطحية لا غرض من ذكرها، كانت لكنتي بذيئة ومؤلمة، قادني غروري إلى التشدق في أمور لا أفقه فيها شيئا، كانت لغتهم مترفعة:

"تعرفين أن لك الحق في تأييد أبناء جنسك، أما أنا ومعظمنا، فنحن محايدون، أما القضية فهي موضة، موضة البطيخ" قال أحدهم وكان فظا بما يكفي لسحب سيجارة من علبتي، فكرت في الذي قاله للتو، وضعت علبة سجائري بين فخذي، البروباغاندا نفسها أسطوانة مجروحة كما دائما، أفكارهم مترهلة ومرهقة وقلبي مصاب بالقشعريرة، المكان الذي أتيت منه يلغي الإنسان وهنا تلغى المجموعة عند اللزوم، الإنسان الحقيقي لا يكون أبدا محايدا، يمكن أن يكون عاجزا أو جاهلا، هذا ما يجعله لا ينحاز ضمن دائرة أو أخرى، عدا ذلك هو تملص من الحق، المحايدون يخذلون الإنسانية، الإنسانية على شفا الانقراض.

انصرفت!

ولم أترك في الكوب الكرتوني المجعد سوى القهوة المخثرة بالسكر في القاع، وعلبة شابمان فارغة، وبعض العملات المعدنية دون بقشيش، وأغنية لبينكشيفت تركتها خلفي في الرواق بدأت في التمزق شيئا فشيئا حين غادرت المكان.

عدت إلى النزل الرخيص حيث أبيت، كانت تلك ليلتي الأخيرة، طلبت صدر دجاج مشوي بقوام اللحم بين السبابة والإبهام وسلطة شمندر وأرز،

أشعلت التلفاز، تنديدات إخراس الرصاص ما يدلنا على استيقاظ الضمير الكوني للأمر الواقع بسعر عشرة آلاف جسد مرفوع ومدينة وأكثر من سبعين سنة، ورغم أن الأمر لم يصبح مطمئنا بعد حيث تزداد الأحداث شناعة كل يوم، وقد حزّ في نفسي الوضع المقرف، قاومت رغبتي الملحة في الانهيار، حاولت عصف ذهني لكتابة صفحة أو صفحتين، رسمت ابتسامة منسحقة وضحكت، يقول ديزموند أن الضحك قد تطور عن البكاء، أدركت أن أمرا قاسيا نعانيه هذه الأيام سيتسبب في صحوة، ربما تتضح النكبة في الأيام المقبلة، نمت.

لا أكره الأشياء، والأشخاص، فليست كل الأشياء جديرة بالكره، لدي خلافات عديدة رغم ذلك، عندي أعداء كثيرون، أعرف أشخاصا كثر ولا يحبني معظمهم، ولا يشعرني كل واحد منهم إلا بالضجر، فكلما زاد عدد الذين أعرف، زاد شعوري العميق بالوحدة والتفكك، أفكر كثيرا قبل النوم في الستة وعشرين عاما التي انسلخت من حياتي دون أن أحس، ومن الأفضل لي أن لا أفعل، فليس هناك أمر يضاهي متعة نوم المرء دون أن يقلب الأشياء في ذهنه ههنا وههناك مرارا وتكرارا.

الأغنية المدهشة في الخلفية التي كتبتها لصديقي النيجيري "إني" تذكرني أيضا في السنتين الماضيتين:

دعيني أريك أمرا عني

أراهن على أنك لم تريه من قبل

أنا ظل هذا القمر على هذه الأرض

وعندما يموت الليل

أحس بالظل مبتلا

القلوب الجائعة تأكل الكذبات

لتنزف ندما

ضعي رأسك على ركبتي

أقرب لتعرفي كيف يجعلني هذا أشعر

الفلاشباك يمنعنا عن رؤية الآن

أنت أرقصي على إيقاع عروقي

أما الذي في قلبي الآن فلا يكاد يذكر، شعور شحيح، فما عاد في وسعي تذكر كيف تبدو الأشياء كلها، وصورتي عني هي كصور الفيلم التي تنطفئ حين يلامسها النور، حتى أنه لم يعد في وسعي أن أحب، فإن الذين أحبوا حد نخاع عظمهم، ولم يحتفظوا حتى بذلك الحب الطفيف لأنفسهم يلملمون به شتات أيامهم، لن يقدروا على حب قطعة جلد أخرى، كالذين يواجهون حروبا عديدة في حين أنهم استفرغوا جل رصاصهم لقتل جثث وجدران وفزاعات قش.

رأيت في الحلم أنني أفقد عددا من أسناني العلوية، أعاني عادة من الجاثوم والشلل أثناء الليل، استيقظت الساعة الثانية إلا ربع ليلا، تصرف بديهي ليس إلا، أتنبأ أن أبناء الرب سيرمون بالقنبلة، مبتغاهم ليس سوء نية مني، أخمن، بعد صرف انتباه الرأي العام، ستنبثق آبار النفط تحت ركام المستشفى وتأخذ الديار المهدمة لمن لهم الأحقية وتحرق خلف هجرتهم نعالهم المطاط وأشجار الزيتونة ووابل من القصص المحزونة التي لن نسمع عنها شيئا سوى الصورة المشوشة بينما يحاول البعض الجاهل دحضها لتزييف تاريخ الإنسانية كما المعتاد، وهو من الشر والظلم أن يكذب المرء عينيه، لم أكن ذات حق في أي تلميح لأي اعتراض أو تفاوض، ما يستثير غيضي وجنوني، شعور من بترت يده في حين يشتهي أن يحمل البندقية في وجه سيده، وأنا نفسي كسمة الشبوط أسبح عكس التيار محاولة الفرار من الاحتيال والتضليل، يقول بونيفاس باسكال أن الأخطر من أولئك الذين يخدعون هم الذين يخدعون، ولا يمنعني هذا من احتقار الملايين الذين تم التلاعب بهم كدمى الكاراكوز وإخضاعهم كالعبيد.

إن الحياة الإنسانية تفقد ذاكرتها شيئا فشيئا، تمر بمرحلة من النسيان والخرف، ليس عبثا بل حدث بفعل فاعل، لقد ضُرب التاريخ بحجر أصاب ذاكرته، وإن الذي لا يملك ذاكرة لا يملك تاريخا ولا هوية له، وهذا ما لن تسامحنا عليه الأجيال القادمة، أننا كنا شاهدين على ما حدث، واخترنا أن نمضي سبلنا شياطين خرساء، إلا أننا جيل منحوس غير محظوظ، تقطعت

به حبائل الحقيقة أيضا، فأخذنا نترنح بين كاذب ومكذب، وباتت الحقيقة شيئا مرهقا لتحصيله وإثباته في حين سادت الحماقة واللامبالاة.

نمت مجددا، لم أحلم هذه المرة

بعد استفاقات متقطعة استيقظت فجرا وحملت نفسي أجترها، لست أقصد مكانا بعينه، ليس ضياعا بالنسبة إلي أن أكون دون وجهة في غالب الأحيان، فمن حق المرء أن يتوه، مشيت نحو الشاطئ بعد أن أوحى الهواء بمطر قادم، الملصقات على الجدران البليلة المخصصة للإعلانات بدأت في الانزلاق والذبول، السحابات المنتفخة المتلبدة زحفت نحو الخلف وبدأت في ضخ الرذاذ، جلست على رمال الشاطئ، تلك هي الشمس هناك، مقروحة أكثر من المعتاد، وأنا؟ فإلى أين أمضي؟

لا أحد يمضي إلى أي مكان دون نقود، ولكن الأشياء التي تُشترى بالمال قيمتها المال فقط، والإنسان الجيد يعرف أن مأساة هذا العالم بدأت حين فصلت المادة عن ما وراءها، هكذا أمست خاوية، جاينية وممصوصة، لست أدري ولكن لم يعني المال لي شيئا طيلة حياتي ما دام متوفرا للسحب والإنفاق، وإن أحسنت القول ستكون الفكرة التي خطرت لي للتو بمثابة تنوير حكيم، إن المال أشياء كثيرة، لكنه ليس كل شيء.

لدي الكثير من المال، ولكن الحياة الأكثر مللا هي التي لا يعمل خلالها المرء عملا يلهيه عن الماضي ويثبته في الآن كالغراء، أنا تانونيوس مارسيلونس بالنسبة للملل، ولكن حين لا يكون في مقدوري الكتابة، إذاك أشعر فعلا

بالاحتضار البطيء الفتاك ينال مني، وكأنما أخاف أن أموت قبل أن أكمل قصتي، شيء من الرهاب، أمضمض؟ هل لن تأتيني الكلمات الحقيقية الزاخرة بالمعنى؟

بدأت في كتابة الرواية قبل سنتين ولم أتمكن أبدا من إكمالها، أكتب صفحتين عن كل ما يجول بخاطري كل يوم، أحيانا كل أسبوع، أتوقف لشهور لأنني أرى أحلاما مزعجة بين الفينة والفينة، الأحلام التي تذكرنا بشيء بهيج حصل في الماضي لروعتها تصبح حلقات مجنونة من الكوابيس حين نستيقظ، وحيث أنني لست بصدد كتابة أي شيء عنها، يخصها، وأخاف ذلك، أكتفي بالرضا الرهيب الذي تمنحني إياه الخمسين صفحة التي كنت أكتبها منذ سنة ونصف، وأخمن، أن أبدأ من جديد.

لففت كوفيتي حول عنقي، محاولة التعايش، هذا اليوم تجري على ما يرام، نظرت فيما حولي بقصد امتصاص الحياة وتحويلها إلى كلمات، جلس قبالتي شاب خلقه الله خلقا حسنا (فوتوجينيك) على الأقل، اقتربت منه، كان ذا طاقة مهتاجة، ولا تعد تلك ميزة بالنسبة إلى الإنسان، لم ينظر إلي كنوع من الرفض، ها هي القصة العبقرية التي أحاول كتابتها تظهر، القصة بالنسبة لي وسيلة لا غاية، يجب أن تكون غير خطية، لا تعبأ بالتفاصيل الهلامية التي تأخذ شكل أي قالب في الوجود، وليكن، صوت الكون يتمدد إلى هذه اللحظة، وذرة الرمل تحت فخذي وشظايا زجاج الشراب تحت الطبقة الرقيقة من الأرض الطحلبية، شاب ممل، وخائف، لا يرغب في أن يحبه الناس، جنون، لا مناص من الحب والمزاج المراهق الذي يتبعه، يلاحق حركة الهواء

بعينيه البحريتين المائلتين للزيزفونة، ضايقته بدوري، اكتشف إذن أنني أنظر إليه بعد وقت طويل، شعرت به يحس بعدم الارتياح والغرابة، الرجال الذين يتمتعون بحس أنثوي يتركون انطباعا نبيلا إنما خال من الفحولة، لست أدري كيف أكلمه، أو أحاول، معرفة من يكون هو، الشاب النبيل الأجنبي ذو الشعر المجعد، ومن المحتمل أن يقوم بتجاهلي أيضا إذا ما تحدثت إليه بشكل لطيف، دس يده في جيبه، أخرج سيجارة ذابلة لكنه لم يجد قداحة، تلك كانت فرصة جيدة للتحدث إليه بإعارته ولاعتي، لن أتوقع رد فعل سيئ، فإن أسوأ ما يمكن فعله قد حدث بالفعل، أحب مطاردة المجازفات، شراهة فكرية يمكن تسميتها، ولا يمكن تفسير ذلك بمجرد شرحه لغويا، إن مفاهيم الفرد عن ذاته تكون كتلة واحدة ممزوجة بشوائب من أفكار الآخرين التي يصعب فصلها وتمييزها، إن ذلك ما أقول دائما، ولو بأشكال مختلفة.

علي الاعتراف بأنني دائما ما أختار الأشياء التي تناقضني لأحبها، ربما اعترف الكثيرون بهذا ولكن بشكل فكاهي مأساوي، ماركس غروتشو قال نكتة شبيهة ربما اعتقد أنني أحس، قال أنه لا يمكنني الانتساب إلى أي ناد يضم شخصا مثلي كعضو، ولأتصارح مع نفسي، إن سلوكا مربكا كهذا الذي أفعل لا يصدر إلا من شخص يكره نفسه، سواء أقلت نعم أو لا، اتفقت أو لم أتفق، إنها الحقيقة.

قدمت له قداحة، أشعل سيجارته، نظرت إليه، يا إلهي، إن هؤلاء الأشخاص الذين نراهم كل يوم أحياء، مثلنا تماما، ليسوا مجرد رقم، بل إنهم يحملون أسماء، ولديهم كل تلك الأشياء التي يحبون، والتي لا يحبون، إنه من

المرعب النظر إلى هذا الشخص الغريب والتفكير في أن جسده هذا سيتوقف عن الحياة يوما ما، ربما، ستفكر أيضا في أن هناك يوما بعيدا سينقرض فيه كل هؤلاء البشر الموجودين في هذه الحياة الآنية، لن يعود هناك أنت وأنا، من الجميل إعطاء الشيء معنا آخر دون الحاجة إلى الفلسفة، حسنا، وجد نفسه مضطرا للنظر إلي، سيكون شخصية جامحة لما أكتبه، سيكون من الجيد اصطحابه في نزهة قصيرة، وذلك ما فعلته.

أخذنا نتحرك ببطء في الشارع، نتسلل عبر الشجيرات الصنوبرية التالفة الخاصة بالكريسماس، كانت الشمس قد انفجرت عبرها، دخلنا المقهى الرخيص الذي لم يعد يبدو كما في البارحة، لقد أضافوا طاولة خشبية غير مدهونة وزهرة بلاستيكية وكرسيا هزازا تحت لمبة فلورية ملتوية.

كان اختيار الزاوية المناسبة للجلوس أمرا مرهقا بالنسبة لي، أتحاشى الجلوس في الوسط، وتحت الأعمدة، وعلى الطاولات المسندة إلى الكونتوار، وفي الخارج أيضا، أحب الطاولات الجانبية التي لا يجلس حولها أحد غالبا، زحزحت كرسيين إلى طاولة اخترتها، جلس أمامي، أحضرت كوبي قهوة ثقيلة وباردة، أخبرني أنه هنا منذ ثلاثة أسابيع، لم يجد المدينة كما توقعها ولم يكن في مقدوره إخفاء الإحباط حين اعترف لي بذلك، أوافقه الرأي، إن الشمال يمكن أن يبهر أي شخص قادم من الجنوب، ولكن يمكن لأي شخص أدار رأسه إلى الوراء قليلا وفتح عينيه أن يرى، الحرية الموهومة، تنتهي حرية الفرد حين تبدأ مصالح الحكومة الاقتصادية، وهم الديموقراطية، والهوة الواسعة بين الطبقات، والكميونات المجتمعية المصهورة في برطمانات كل على

حدة لخلق الفردانية، والشرخ المخجل في مبادئ العلمانية والرأسمالية، أنا لست سياسية ولكن لي وجهة نظر متواضعة كان علي وضعها على الطاولة، ولست من المهووسين بنظرية المؤامرة، إنما كل الأحداث الحالية تثبت أن العالم ديستوبي بامتياز، لم أكن أراه هكذا من قبل لأننا لا نرى العالم كما هو عليه، بل كما نحن عليه، كثيرا ما رأيت العالم فاضلا، الآراء تأخذ مجرى آخر الآن، أعتقد أننا نستيقظ، أنني أستيقظ.

هو لا يتحدث كثيرا، جعلت أفكر في نفسه عوضا عنه، يرتبط ذلك بالخيال، يجد الناس المتعة في التخيل، لأن الخيال لا يرتبط بالمنطق، ولا بالحقيقة، ألا يكره الناس الحقيقة؟ بلى، لهذا يحبون أولئك الذين لا يتحدثون بشأن أنفسهم ولا يعطون شيئا يخصهم، لا تجعل هذه السمة الشخص ساما لكنها تجعل الارتباطات بيننا كذلك، إنك وإن أحببت واحدا من هؤلاء، تجد لاحقا أنك أحببت فقط الفكرة في ذاتك عنهم، لا تجسدهم الفيزيقي في العالم.

بغض النظر عن كل السِّمات الجيدة، إن شخصا يحمل في جيب سترته دمية ماتريوشكا مصغرة لا يمكن أن يكون سليما، ربما يعاني من عقدة أوديب، أو ذهان، لم أسأله، إذ لم يسترعى الموضوع اهتمامي البتة، دفعت الحساب، كما اتفقنا على أن نلتقي مرة أخرى في عشية أخرى.

الفصل 2

امتنعت عن قص شعري هذا الشهر، بدأ بالنمو من الجوانب عند الأذنين واستمر بتشكيل لفات حلزونية مزعجة، أخذت شعرات الغرة تصيبني بوخز في عيني أحيانا، جعلت ألبس قبعة صوفية حين أضطر للخروج لقضاء مشاغلي، ولأنني تخاذلت في غسله هذا الأسبوع، إذ لم يتوفر لي الوقت، رائحة العرق سوس وبخاخ الإكليل كذلك تجعلني أتحاشى المشي في الزحمة، وأيضا صنع مسافة كبيرة بيني وبين المصطفين في الطوابير.

ذلك عزز وحدتي، وجعلها تمزقني على نحو مفاجئ، ينبغي أن أغسل نفسي، وأحاول بشكل يائس السيطرة على الأمور، لكنني كنت أمضي حياتي الثقيلة في التفكير فقط، حتى أنني لم أعد أفعل شيئا، فإن المرء يصبح ما يفكر فيه، إلا أنه لا يصبح شيئا حين يفرط في التفكير.

ظللت أبقى في كرسي الغرفة الهزاز لساعات مع الإضاءة المخففة، أضع نظارتي فوق رأسي، أستنطق عقلي، وكان لا يمكن أن أخمن في شيء واضح أكتبه، ماذا إذا خذلني المعنى خلال الكلمات؟ يا للعجب أنا على حافة الجنون، من جراء كل هذا الوقت الذي نمته.

نهضت من سريري، أخذت أنظر إلى انعكاس نفسي في زجاج النافذة، فركت عيني ودلكت وجهي برغوة الصابون، وحين أدركت أنه لا حاجة لي بالبقاء خارج السرير، عدت إليه، وضعت اللحاف الثقيل علي لأشعر بالدفء، رحت أفكر في القصة التي سأكتبها عبر متتالية من المسودات القديمة وبعض التعديلات، المخطوطات القديمة تشعرني بالحرج، إذ لا يشعر الفنانون أبدا بالاعتزاز حين ينظرون إلى ما أنجزت أيديهم سابقا، وإن ما أفعله

لأتخلص من هذا الحرج هو فصل نفسي الحالية عن ما كنت عليه في الماضي، كنت دائما شخصا مختلفا، هذا ما أقتنع به عن رضا.

قرأت كل تلك المسودات التي كانت مصفوفة ومبعثرة فوق الزربية كالحة اللون، انبثقت في ذهني المزيد من الأفكار، ليس عن القصة بالتحديد، إنما عن نفسي، وربما هذا سبب آخر لجعل العار يمزقني، ثمة ندم، وهناك الشماتة والقليل من الخجل.

ما الذي من بين كل الأشياء التي أتذكرها يتذكرني أيضا؟ من السخف أن يحدث أمرا كهذا ولو بالصدفة، إلا بكثير من الحظ، والتفكير المفرط في كل هذا، أعرف، أنه سيكون هوة بلا قعر.

كنت في حالة لم أقدر فيها على النوم، كما على الاستيقاظ، أرغمت نفسي على النهوض من الفراش لأنعم ببعض من الشمس والجمهور والهواء، وضعت الكرسي الهزاز في البلكونة ورحت أهزه ذهابا وجيئة، كان قلبي خافقا ولئيما، لا يملك العالم شيئا يرضيه حتى، لا يعجبني أمره، حين بدا قاسيا ومرتاعا، المحزن هو أنه لن يعود مطمئنا كما كانت عادته، ما يبرح يخفق، يخفق في صدري مرهقا، هو ذاك ما يقدر عليه، والمخيف هو أن ينظر إلى العالم المضجر بعين الاعتياد، والألفة، وقد لاحظت أنه بحاجة إلى أن يحب لا لأن يكون محبوبا، بل أنني رأيت أنه في أمس الحاجة إلى البكاء، كما إلى الضحك، ما أردته من العالم فقط، هو أن تكون هذه الأمور الطبيعية متاحة.

الجماهير الكثيفة تحت الشرفة، معظمهم لا يجد غاية من حياته، هم إذا سعوا ليمتلكوا الشيء امتلكهم، أرغب في أن أتجول في الزحمة مع الدراويش من المارة وأمد يدي طلبا للرحمة أنا الأخرى، أرتجل لنفسي معنا لمعيشتي، أحتار بين الخبز والحياة الفاضلة التي يكون فيها المرء مرغوبا فيه، يمضي سعيدا لا يكاد يفكر في أمر من الأمور.

وفكرت في أن حياتي هذه التي تسير على هذا النحو، ليست ضربا من ضروب الصدفة أو الحظ، لست أدري أي الأمور أكثر إزعاجا، الكوابيس أثناء النوم، أو الأفكار الرديئة المماثلة التي تعقب الاستيقاظ مبكرا، وهو من المثير للشفقة الاستمرار في التخمين دون الاندفاع فعلا في حدث عملي مضبوط، لم يكن في مقدوري العيش، فمن عادتي انتظار شيء، وحين أتذكر أن حياتي مسؤولية خاصة لا يمكن تفويضها والاعتماد على أحدهم لتسييرها، حقا، يكاد يغمى علي.

كنت في معظم أيامي التي أقضيها في التفكير أعاني الضآلة والضعف، وقد كان من المزعج لَمُّ هذين الخاصيتين في شخص يمتلك عقلية خشنة وطباعا عصبية، فما يقال عن السمات الجسمية المميزة التي تجعل المرء مطابقا لما يريد نفسه صحيح وصريح، يشعر أولئك الضعفاء الحمقى الذين لهم أجساد كبيرة وقامة طويلة بالبلاهة أكثر فأكثر، تبدو أجسادهم لأنفسهم كالملابس الفضفاضة الواسعة، ويشعر من هم مثلي بالضيق في جسد صغير، ولو أنني أشك أحيانا، أنه ليس بالمقاس المناسب حتى، يمكن تغطية صفة مخيبة للآمال

كهذه بالموضة إذا لم تكن متبوعة بالقبح الشديد، وجه ملائم، وطول متوسط، يمكن ألا يكون الأسوأ على الإطلاق.

وسوى التفكير في كل هذا، لم يكن ثمة ما يفعله المرء العاطل، أخذت لقمة باردة وعدت إلى الفراش مجددا، نظرت إلى السقف، ماذا يمكن للمرء أن يكتبه عن السقف؟ سمعت أن آخر ما يراه معظم الذين يفقدون حياتهم هو السقف، أيا كان مصدر المعلومة، ومستوى صحتها، على المرء أن يفكر دائما في ما يمكن كتابته عن كل شيء تقريبا، حين تكون العواطف مستثارة، وهناك رغبة في الكتابة، لا يجب تفويت صفقة كهذه مع الحظ، رميت بيدي تحت السرير، وبحثت قليلا بين الأغراض الملقاة تحته، وجدت دفترا به وريقات شاغرة، كان تحت الوسادة قلم حبر، نظرت مطولا إلى الصفحة، أخذت أعض رأس القلم بأسناني، كنت قد فكرت في ذلك الشاب الأجنبي الغريب، لم تكن لدي فكرة مشرقة، أو معلومة خاصة، أو وصف معقول، لكن كان هناك سيل قادم سيساهم في قلب طاولة الإلهام، وكتبت على مضض، ما تيسر من الذي خطر لي حينئذ، حتى الرديء منه، وحين توقفت وراجعت الصفحات، وجدت أنني لم أكتب سوى خمس صفحات وكان معظمها مخيبا للظنون.

ذهبت إلى المقهى الرخيص في صباح اليوم التالي، وعدت إليه مرة أخرى في عشية ذات اليوم، لأنني شعرت بالضجر مع نفسي، ولأنني أستمر في التفكير فيها، من؟ لم أعد أتذكر حقا، كيف أصبحت حياتي تلك التي عشت فكرة باهتة كزجاج ندي، إنها الآن بالنسبة للجميع تافهة وبدون أهمية،

والأصعب، هو عدم القدرة على التجاوز، وددت لو أفعل، الحياة تمر بسرعة، غدا عام جديد، حتى أنني لا أسعى لاقتراف حياة أخرى، أشعر فيها بالحب، والحنين، والسرور، والغضب، إذا كان هذا ممكنا لكنت أكثر قناعة بمعيشتي التي هي في غاية الاضطراب.

العام الماضي، يبدو كهذا العام الذي يدخل، لكن حين أخمن قليلا، أجد أنني حتى بالأمس، كنت شخصا مختلفا، نسخة مني تتكرر في كل يوم، لكنها تصبح أقل اكتراثا، وأقل شغفا.

ماذا يجلب الاهتمام الشغوف بالمادة؟ لا شيء سوى السأم والضعف.

هناك نوعان فقط من البشر إذا سألت، الذين يعيشون إذا كانوا أقل اكتراثا، والذين يموتون حين تصبح الأمور لديهم غير جديرة بالاهتمام، وأنا إذا سألت، في كلا الحالتين أموت مللا.

في طريق العودة إلى المنزل فقدت قدرتي على مواصلة المشي، استكملت التقدم قليلا عبر الزقاق الفارغ بين جدارين منعزلين، لذا جلست بتؤدة على حافة الرصيف بحيث لم يكن علي صب جل طاقتي في المشي، يتراءى لي شيء عنيف من الماضي، شديد القسوة لدرجة أنني لا أكاد تذكره في صحوتي، العالم مصاب بنا نحن المجانين، أنا كتلة من تراب وعرق وتفاصيل أخرى، تشعر بالخزي، وتستنكر فكرة ما، ولا تعترف أن الكره والمحبة لا يحدثان في المكان عينه، لا يعالج الجسد أحاسيس متناقضة في ذات القلب، أو في ذات الوقت، كان علي الإقرار أنه في مقدوري حب الشيء وكرهه بنفس القدر

بغض النظر عن التضاد المربك، كان علي السماح لنفسي بالإجابة أحيانا عوض التساؤل المتكرر، لحظة إثر لحظة، أدرك بنفسي، أنني هنا أعاني العديد من الأسئلة التي تجعلني أصاب بالمرض، أنتظر إجابة شافية، إنما، لا مجال للجدال، يخبرني حدسي أنني لن أحصل على شيء مما انتظرت، وستحدث الحياة كما ستحدث، الحياة مؤلمة، وليس هناك من غرض تقريبا خلف ذلك، التأكد كل يوم من أنني أحاول أن أنسى كل صباح، لكن، أول ما يخطر ببالي هو شخص من الأشخاص، فإن لم يكن هناك متسع من الوقت لأجد سبيلا للتفكير، أقحمت نفسها بين عيني، أرتبك إلى حد الجنون، هي قصة كلما غادرتها، تبدأ من جديد، هي تماما حلقة مفرغة!

الفصل 3

لم يكن ثمة الكثير من السبل لتصريف الوقت، كان مملا النظر إليه وهو ينتف جلد أظافره بأسنانه، ويعبث به بين شفتيه المزرقتين، كان غريبا علي رؤيته على هذه الحال، وقد تغيرت هيئته كثيرا خلال أشهر قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة، ظننت أننا لن نتكلم أبدا في تلك المرة التي التقينا فيها صدفة في محل الفلافل، كان يعتمر بيريه على حافة رأسه، وربطة عنق غير مشدودة، وبذلة حليبية، يدخن سجائر كثيرة باللهفة ذاتها، لم أقل شيئا حين أنزلت كرسيا من فوق الطولة وجلست، نظر إلي بعينين باردتين، وقال لي بصوت أجش كلمة واحدة:

"أعرفك"

لم يسأل كلانا الآخر عن حاله، ولم نكد نعر بعضنا اهتماما طفيفا، أفكر في العديد من الأشياء أغلبها هي، كيف كانت الحياة جيدة قبل مدة، لكن السعادة التي يتلقاها المرء إزاء أمر فوق حدود الحقيقة زيف مؤلم في نهاية المطاف، بل هو أكثر الأمور إيلاما.

سألته:

"كيف ننسى؟"

قال:

"إنه فقط يحدث"

"ليس كذلك، هذا مستحيل، ينسى العقل إذا أراد ولا ينسى إذا أردنا!"

"العقل كائن منفرد بذاته"

"ليس كذلك"

"نحن لا ننسى، نحن فقط نمضي حين لا تكون هناك أهمية لما نحاول نسيانه، حين يذوب الاهتمام؟ ربما نحن لا ننسى، بل نفقد الروابط التي تؤدي إلى ذكريات معينة، يمكن استرجاع تلك الذكريات بمجرد إيجاد رابط مشابه"

"هذان شيئان مختلفان"

"كلا"

"هل هناك شيء تود نسيانه بشدة؟"

"لا" تلمس شفتيه بأنامله ثم أضاف:

"ربما لا أريد أن أنساه، بل أريد أن أهتم لشيء آخر "

"العالم مليء بالأشياء والأشخاص، لكن لو أنك على حق، لكانت الأمور أكثر بساطة مما هي عليه"

"هل ترين الأمر معقدا؟ هو ليس كذلك، هذه الأمور المعقدة الغامضة هي فقط أمور لا تملك إجابة في الوقت الحالي"

"أنت تنكر وجود فضيلة النسيان؟"

"ليس تماما، نحن فقط نصرف نظرنا عن الموضوع فلا يصبح من أولويات العقل التفكير فيه، أين هي الحياة الماضية من اهتماماتنا اليوم؟ نحن لم ننسى كل شيء كأنه لم يحدث، بل فقدنا القدرة على الاكتراث"

ضغطت على صدري بقبضتين مغلقتين، كانت تلك صفعة قوية، حقا، كيف نسيت؟

الحياة برمتها لا تنتهي لمأساة أحدهم، ولا يعتبر الزمان أولئك الذين ماتوا في سبيل الحرية آلهة مهما كان الحال، لا شيء مما ذلك يحدث، لا يمكن للعبد أن يكون إلها وإن خلق شيئا، لم يخامرني الشك في أن الله وحده سيتذكر هؤلاء، العالم يسير كالدفق، كالفيضان، ولن يتوقف أبدا لانتشال جثة طفل صغير، ونعال والده، الحزن كان شديدا والغضب مكثفا، القلب تقيأ كل ما يحمله من مشتقات الشعور في قاع اللاوعي، ما الذي أفعله الآن؟ أشاهد صور الشهداء على الفطور مرتين، ومرة على الغداء، وعلى العشاء حين أصاب بنوبات تذكر، لقد كان على حق!

إننا لا ننسى، إننا نستمر في ممارسة الحياة.

ولكن هل تبدو الموت بسيطة كما نراها على شاشة بحجم نافذة؟ لا أدري حقا، لم يمت شخص أعرفه، وأنا على قيد الحياة أيضا، أحياناً أتساءل كيف يكون الخوف من الموت تحت سقف بيتي المهدم، السقف الذي من المفروض أن يكون سماء، يلامس أنفي، وهو قريب، قريب كالموت، بل أن يقتلني حجره وخشبه!

الموت والسقف، الموت تحت السقف، التفكير بعقل النكتة والشعور بشكل هزلي لهدم الواقعية، الشك في مصداقية كل شيء، علي أن أكتب شيئا ما في الحال وبدون تأجيل هذه المرة، ليس متى شئت، بل بشكل متواصل مزعج لحين الانهيار، سأغير محور القصة، سيكون الموت والسقف الولع الأول والأخير، إذن أمنع عني التشتيت، أقطع سبل التفاهة، وأحاول التركيز في شيء واحد، مواصلة الحوار.

رحت أتفرس وجهه المتهكم

كيف يحمل شخص وحيد يبدو في غاية الهدوء والرزانة شخصا آخر داخله، ما هذا اللامعنى في الشعور؟ الشر هو شهوات الإنسان الخاصة، الشيطان كان أداة تحفيز تلك الشهوات، وولعنا بالشخص الآخر ينتهي حتما بتجاهل ذواتنا حتى النسيان التام، فالمرء لا يهتم لشيئين بنفس القدر في الوقت ذاته، ذلك هو الشر، ما الفائدة؟ أتساءل ما قيمة اندفاع المرء خلف شيء آخر بكل هذا الشغف العميق، أقول أحيانا أخرى، أنه علي ترك الأمور على حالتها، دون مساس، أو تفكير، بعضها ليس بذلك العمق حتى، بل إن الأحداث تفقد معناها الحقيقي حين نفككها ذرة ذرة، من المحال فهم الشيء المتحلل المفكك، لا فائدة من ذلك، الأشياء ترى دفعة واحدة، مشمولة وكاملة نسبيا، الخوف، هو الخوف من عدم إيجاد المعنى فيما نفعل ونحس، وفي حياتنا نفسها، قول كل ما يتبادر إلى الذهن لجعل المعيشة أكثر رومانطيقية وبذلك أكثر منطقية؟ أحب أن أفهم أي الأشياء جديرة بالتفسير، وأن أفصلها عن تلك التي لا تستحق كل ذلك الوقت والجهد، إن الأخيرة حتما،

إذا فكرت طويلا، وطاردت الواقعية بشكل خال من آثار الجنون، ستكون الشعور، لا بد من عزل الشعور عن التفكير، أليس هذا ما فعلته طيلة حياتي؟

كلا! الأمور تحدث لأنها تحدث، وهي فقط كما هي عليه، لا داعي للقلق، لا داعي للتعلق بفتات المعنى.

ماذا يستفيد العالم من خسارتي لحياتي؟

ربما لا شيء، الحقيقة التي تثير اشمئزازي، ولكن عندما ينتبه المرء في أثناء كهذه أنه لا يهتم بماذا سيفكر فيه العالم عند رحيله، بل فيما سيفكر هو أثناء الاحتضار، سيتعين عليه التخمين، مرارا وتكرارا، ويقع في الخطأ الجسيم المخجل، سيعرف الإجابة كما أعرفها، وسيرفضها كما أفعل، حين بحثت في نفسي عن ما الذي سيفكر فيه عقلي قبل ثوان قليلة من الموت، لم أعرف أبدا، وبدا التخمين غير مجد هذه المرة، لن يفلح المنطق ولا الخيال في اقتراح أشياء، أو أشخاص محددين، وتلك هي العلة، أما العلة الثانية أنني أعرف حتما من الذي سأفكر فيه قبل دقائق قليلة من الموت، وقد تبادر إلى ذهني شخص من الأشخاص، لا جدل، ولا طعن في الفكرة، إنها هي بلا أدنى شك، هي!

لماذا هي بالذات؟

ما الذي يجعل فكرة الشخص مناقضة لذاته، أنا أعرف حتما أنها لا تبدو كما يعرفها جسدي، ولا يستوعبها العالم كما أفعل، إنّه حب أفلاطوني دنيء، وهو ليس فعالا، لأنّ شعورا كهذا يتجاوز أبعاد الواقعية، والعجيب

في أنه يسمى حبا، فما فيه من خصال المحبة شيء قط، ولا فيه من الإنسانية والسلام شيء أيضا، لا بد من أن الذين ماتوا في سبيل الآخر يعرفون، والمجانين أيضا، والفنانون والشعراء والحمقى والسكيرون في الماخور والمشردون والشحاذون على طول الطريق، الذين جربوا حقا هذا الحب الأفلاطوني، يعرفون أنه ليس شعورا نبيلا، مسالما، بل هو علة، وحالة مرضية مزمنة، حسنا، ليس من المفروض أن يكون الشعور الأكثر نبالة كالحب مؤديا إلى الجنون واليأس، ليست تلك الغاية الأولى من وجوده، ووجودنا، وبطبيعة الحال ليست الوسيلة أيضا، بل هو الدرس الأكثر عنفا، وفي أحيان كثيرة، النهاية الأعمق حزنا وإضحاكا.

عندما انتبه إلى شرودي الذي استمر دقائق طويلة، نقر بكأسه على الطاولة، وحمحم بصوت نقي حنون، وغمغم تحت لسانه:

"ما الخطب؟"

لم يكن بسؤاله هذا يعطي انطباعا بالاهتمام أو القلق، بل كان ينتظر إجابة تغطي فضوله، وكذا ضجره المعدي، الممل، وكما قلت سابقا، شاب عشريني أكل الشيب قلبه بدلا عن رأسه لا يكبد نفسه عناء ابتسامة مصطنعة حتى، بل يزم شفتيه الدمويتين حد الازدراء، وينطق كلمات مقتضبة باردة لا يعنيها حتى، خوفا من أن يصبح حيوانا عاجزا عن الكلام فحسب، سوى ذلك، لا أظن أنه كان ليحدثني، أو يحدث أي بشري سواي، فهو لا يرى العالم إلا محورا حوله، فيستعمله لرغباته البدائية الخاصة، ومصالحه

الشخصية على ما يبدو، كان هذا الانطباع القاسي الذي أخذته عنه مثيرا للدهشة داخلي، ورأيت أنه من الحكمة أن أسأله عن رأيه:

"هل تحب؟"

"حب الآخر هو انعكاس لكره الذات، أو نقصها بأي شكل من الأشكال"

"يا للازدراء!"

صفع الهواء بيده طاردا الذبابة عنه:

"بلى، الحقيقة أن بعض الأشخاص يختارون البؤس في كل مرة، المهم أن يحسوا بشيء مهما كان لعينا مؤذيا، ذلك أفضل لديهم من لا شيء إطلاقا، ألا تظنين ذلك؟ أنا أظن ذلك"

"أتحب شخصا، شيئا؟"

"الحب ينافي الحرية"

"وما أدراك؟ لا عجب في أنك لا تعرف كيف يبدو الشعور الجلل العظيم هذا"

"بلى" قال بشكل صارم

"معرفة الحب ليست في أن تُحِب، بل في أن تُحَب"

حملق في بعينين حزينتين مثيرتين للشفقة، ثم بعدها أظهر بعض الغضب والاحتقار، حسبت أنني أثرت في نفسه شيئا من الكآبة، أو الغيض، فقلت:

"لا شك في أنك شخص... كما تعلم، من السهل أن تحب، إنما الصعب أن يكون المرء محبوبا"

نظر إلي مجددا نظرة ثقيلة، وبالمصادفة، كانت سيجارتي قد ماتت تماما، أطفأ سيجارته في ما تبقى من القهوة في الكوب هو الآخر، وحمل نفسه إلى الخارج، عزيز النفس بائسا، داعيا في قلبه ألا نلتقي مرة أخرى إلى الأبد.

في ذلك الصباح، استيقظت، ليس من النوم هذه المرة، بل الأصح القول من الغفلة، كان ذلك صباح الانتكاسة، حين استيقظت على ألم رهيب في فكي الأيمن، أدخلت اصبعي في فمي أبحث عن مصدر التشنج، تلمست على مضض كتلة صلبة في آخر اللثة، ولسوء الحظ، كانت ضروس العقل قد بدأت في تمزيق اللحم والظهور، بصقت في ماء الحوض العكر، نظرت إليّ في المرآة، لم يتغير شكلي منذ سنوات، الوجه ذاته، الجسم ذاته لا يتغير وزنه أو طوله، الابتسامة الجانبية ذاتها، ما الذي أعرفه حتى؟ المعرفة الحقيقية هي معرفة الإنسان بجهله، لم أصل هناك بعد، لا أعرف شيئا، لست أدري ما أنا، أنا أكبر، عشت مدة أطول، الحياة تمر، ومازلت لا أدري أي غاية جديرة هي التي وجدت من أجلها، لعلها موجودة بالفعل، لمست نفسي، نعم أنا موجودة، وأنا على قيد الحياة.

انطرحت على أرضية الحمام، حيث يوجد الكثير من قناني الكولونيا الرخيصة الفارغة ولفافات أسلاك تنظيف الأسنان، أحسست بنفسي أبتل، وأخذت أنزلق مع بقايا الصابون الذائب المتحلل، لم أكترث، لففت نفسي كدودة خائفة، وحين أغمضت عيني، فكرت، كنت أفكر في أن هذا الإنسان الذي هو أنا، موجود بالفعل، أتنفس، وأمشي، وأبكي، وأحب، الحب... الحب، بالنسبة لي، الحب إسقاط للمخاوف، الحب مناف للحرية لأنه يجعلنا نمتلك شيئا لا يخصنا، وامتلاك أشياء أكثر، يعني حرية أقل، الأحرار الحقيقيون هم الذين لا يملكون شيئا، أو الذين لا رغبة لهم في امتلاك الأشياء، ولا خوف لديهم من فقدانها، كان لدي دائما هذا الذعر العميق من الوصول إلى نهاية الأمور، عندما تموت، وتضمحل، ولا تعود مرة أخرى إطلاقا، ومن الخسارة، أشعر بالخوف، أخاف من الموت أكثر من أي وقت مضى، وبالقدر ذاته، أخاف من أن أعيش مثقلة بالمعاناة والحزن أتسلل بين الأمل والخيبة، لا أدري ما أصل الأشياء شرها أم خيرها، هي المشاهد نفسها، تستمر في معاودة نفسها إلى أن تقوم الساعة، البشرية في مسرحية مر منها ثلاثون ألف قرن، القصص نفسها، الطبائع ذاتها، ناس مختلفون يلعبون الدور كل مرة، ما دمت هنا، إنه دوري، وهؤلاء الذين خلقوا معي في زمن واحد مجعولون لهذا الغرض، حاملين الإجابات مبعثرة في كل مكان، هناك حكمة لكل شيء، وأنا قصة في حياة أحدهم، هذا عجيب، كل أولئك الناس الذي أحمل قصصهم معي يفكرون بالطريقة نفسها التي أفعل، نعاني الحياة نفسها، بطرق مختلفة، ونموت، ميتة واحدة بطرق مختلفة، يا إلهي العظيم، هذا الإنسان المغرور ليس سوى فكرة، والمادة حولنا أفكار متمثلة على هيئة

فيزيقية، أنا فكرة لها جسد، وأفكار عديدة عني في أجساد الآخرين، هذا الإنسان الضعيف يمكن أن تسحقه صخرة، وتقتله حشرة، وتدمره حتى نفسه الهشة الضئيلة النكراء، التي تحمل الشر والسوء، وأن يعيش طيلة حياته كارها لنفسه حتى، لا يحبها حبا قليلا، مفتونا بالآخرين، مغرما بما لا يملك، ناسيا ما لديه وغايته الأولى، مع ذلك أناني لا يختلط بالناس، ولا يعرفهم، جاهلا، لا يقرأ، أو يلعب، لا يبكي أو يضحك، لا يريد أن يحس، بل مخدرا، كوسيلة دفاعية غبية، ليس مؤمنا بالخلود لكن في المقابل يتناسى الموت، على عجالة من أمره دائما، يختزل الطرق ويتجاوز الحياة، يتسم بالقلق والشراهة، مماطل وكسول مع ذلك، ينكر كل الأمور ولا يحب أن يكون مرفوضا، لا يعيش، مجرد من الشغف، لا يتوق لشيء، إنسان كهذا موجود بيننا لا يتذكره أحد، تلك هي الموت عينها.

أخذني النوم، نمت...

استيقظت مع رغبة عارمة في دعس قلبي بطرف حذائي، على الأقل، لا قدرة لي على التركيز، أتدفق مع اللحظات، كانت في نفسي حاجة للكتابة، جلست على الكرسي الهزاز بملابسي المبللة التي تنبعث منها رائحة العجائز والصابون، إن الذي كتبته محض جنون، بعضه مروع خارج السياق، مضمون الإنسان، وبعضه الآخر فرويدي منحط ينبعث من لب العقل اللاواعي، كتبت كثيرا، بل كثيرا جدا، حتى أرهقني عقلي، فوضعت رأسي فوق المكتب، لا أقدر على الحراك، ومع موت الساعات الثقال بدأت أشعر بوخز خفيف أسفل الظهر، فنزعت ملابسي عني، وارتميت على السرير،

أحملق في السقف، والصور، والمصباح، والجدار، والزليج النقي اللامع، فإذا بلغت ببصري حافة الغرفة، بدأت مجددا، ذهني منصرف، يخدعني، لا أدري ما الذي يفكر فيه، وعندما حل الليل، لم أنم، ولم يدعني عقلي وشأني، وهو أمر لم أعد اجد متعة فيه، وقدر المستطاع تجنبت التفكير، شغلت نفسي بعد نقاط البلاط، ودخنت سيجارتين، ورقصت قليلا، ثم لم أدر كيف نمت، وفي هذه المرة، لم أحلم أيضا.

الفصل 4

قبلت يديها المرتجفتين، مالحتين بفعل البحر، أو الدموع، حيث كانت تغطي عينيها المنتفختين، مسكينة، لم تكن تعلم أنني لا أحب الحزانى، الذين تجرفهم الكآبة، والذين يسمحون للناس بأن يعثروا على هذه الأجزاء الحميمية من انفسهم، فغالبا ما تنتهي علاقاتي بهؤلاء سريعا جدا، وما عدت أطيق شيئا ثقيلا، احتضنتها بيدين باردتين، وجسد لا يكترث، كانت على وشك البكاء مجددا، وحين تزاحمت أشعة الشمس فوق شعرها الليلكي دعوتها للسباحة، رفضت، لم أبالي أيضا، نزعت سترتي عني، وطويت بنطالي، ومشيت في الماء على امتداد الموج، ينتابني مزاج رائع، قضيت وقتا جيدا برفقة نفسي، على يقين بأنني لن أقدر على ان احبها هذه المرة على الإطلاق، لا شقاء في الأيام الآتية، لا قيود، وليس هناك من أقاسمه عاطفي، يا للحرية.

رميت نفسي في الماء الصافي الدافئ المبقع بدوائر ذهبية من شمس الربيع، أفكر دونما توقف، لكنني أكثر سعادة الآن، وحين انتهيت من السباحة رحلت بمفردي، ولم أشأ أن أعود إلى المنزل، فمشيت الهوينى، بثقة، دونما هدف أو وجهة، نحو المجهول، رحت أعدو في اتجاه الشمس، كان النهار في نهايته، والمدينة بدأت في الاحمرار والخمول، وكان عدد الأشخاص في الخارج قليلا جدا، وبعد أربع دقائق من الركض الخفيف اختفى الناس عن أنظاري، ولم يبق سواي في الشارع.

كان في نهاية الممر بعض الحشود والجماهير التي يمكن رصدها من مسافة بعيدة، وتوضح لي أن هناك حفلا أو عرضا فنيا في صالون المنطقة الذي قد أغلق منذ سنوات، ولست أميل إلى الدخول دون سبب، أو دعوة، ولكن

المرء يشعر بالملل بين الفترة والفترة، وينتابه الفضول والحاجة إلى التواصل، ثم ما الذي سأفعله في وقت كهذا؟ سأعترف أنني دخلت في ذلك اليوم، ووجهي محمر من الركض والبرد، ولا فكرة لي عن أي شيء إطلاقا، ودعوت من كل قلبي ألا أصادف شخصا أعرفه.

كان المعرض ضيقا بالعرض، وعميقا بالنسبة إلى الطول، حيث تأخذ الغرفة شكل مستطيل، ولم يكن ثمة نوافذ، أو مخرج هواء، وكانت الغرفة الكبيرة مقسمة إلى غرف أصغر، مربعة الشكل، متصلة بأروقة معينة، وكان في وسعي أن أرى أربع غرف كاملة من مكان واحد في منتصف الرواق، وتبين لي أن جدران الغرف الأربع الأولى خالية من الدهان، مهيئة للترميم، فارغة لا أحد فيها، أما الغرف الأربع في الرواق الثاني فكانت على جدرانها بضع لوحات رديئة مرسومة بقلم الرصاص، أو قلم الحبر الأزرق فقط، ولم يكن هناك العديد من الزوار، وحدهم الفنانون في الزوايا، عاطلين عن الكلام، لا ينتظرون شيئا حاسما على ما يبدو.

تسللت إلى الغرف الأربعة الأخيرة، ولم يكن فيها العديد من الناس أيضا، غرفة للصور الفوتوغرافية، وأخرى للوحات البانورامية، وغرفتين منفصلتين مغلقين بجانب درج الطابق العلوي.

صعدت الدرج إلى الطابق الأول بعد السفلي الذي كنت فيه، كان غرفة مفتوحة بشكل كامل، وفي استطاعة الواحد أن يلاحظ عدد الناس الكبير، وعدد الفنانين الأكبر، يتحركون ذهابا وإيابا، على وجوههم ابتسامات غريبة، وعيون مفعمة بالملل والنعاس.

"الشك الزائد الذي يقوده إلى الشعور بالاضطهاد، أما عدم الاندماج فهو شيء نابع أصلا منه لأنه لا يثق بالعالم بل يرى الجانب السيء منه، أنه هنا يصف نفسه بالمعقد" قال أحد الزوار بنبرة حادة، وتبع ذلك تعليق آخر:

"إنّه لا يصف نفسه بالمعقد فحسب، بل هو يحسب نفسه آلة لا إنسانا، آلة أو حجرا، أو قطعة بلاستيكية، شيء لا يحس إطلاقا"

تدخل فنان آخر:

"هذا ليس صحيحا، هو لا يصف نفسه بالمعقد، ولا بآلة أو حجر، بل هو يصف نظرة الناس له، بل وقلة الثقة تلك بينه وبين العالم متبادلة، وهو أمر لا جدال فيه، لأنني سمعته قالها بنفسه"

"إذا أنت أحد أصدقائه؟ جيد، جيد" قال الزائر

"لا، لست كذلك" أجاب الفنان ضاحكا

"يمكنني رؤية هذا"

وقال الزائر الآخر للفنان:

"وأين هو إذا ؟"

"لأجل ماذا؟"

"لأجلنا نحن!"

"لا أعتقد أن في إمكانه المجيء اليوم"

"ولكننا دفعنا مقابل رؤيته، وهذه الأعمال كلها التي هنا، عشوائية، وبلا قيمة إذا غاب حتى تعريفها البسيط من الفنان نفسه حتى لا نرهق أنفسنا في شرح خاطئ، فما حاجتي أنا من قطعة فلم قديمة؟ أو قطعة سروال جينز معلقة في إطار؟"

"هذا هو الفن سيدي، استسمحك عذرا" ثم هم بالمغادرة إلى مرسم في الطابق الثاني.

أكمل الزائران الحديث حول هذا الفنان الغامض، الذي ترك لوحاته في الصالون ولم يظهر منذ ذاك، كان الحوار بشأنه عقيما، فهم لا يعرفون شيئا عنه، عمره أو جنسه أو شكله أو عرقه، فنانا حقيقيا كان أم نصابا، فما تركه كان صورا فوتوغرافية معلقة وكتب، وخرقة سروال نسوي بالية موضوعة في صندوق زجاجي متين.

"ليس من المعقول أن لا يكون لهذه الأشياء معنى"

"لا جدوى منها، تم خداعنا فحسب"

"لا أعتقد ذلك"

وراح يقلب قطعة الجينز بعينيه الصغيرتين، ويضع اصبع سبابته فوق فمه، ثم قال:

"ربما، أظن... أن هذا الفنان تعرض للاغتصاب، ربما هي امرأة"

"لماذا؟"

"مجرد تخمين"

"أو ربما هو رجل مغتصب "

"ربما، أجل"

"ماذا عن الصور الفوتوغرافية ؟"

"مسألة كبيرة تلك، يجب سؤال الفنان بعينه"

فكر الرجل لبرهة، ثم أخذ نفسا خفيفا وقال أنه شعر بالضيق، وسيخرج، أما الرجل الثاني فحملق فيه طويلا وهو يحمل نفسه راحلا، ثم نظر إلي، وانتبه لوجودي، وانتباهي، فقد كنت المرأة الوحيدة في المكان، استدار دورة كاملة، وجاء نحوي موجها كتابه إلي:

"من الجميل رؤيتك هنا"

كان وجهه مألوفا بشكل لا يصدق، نظرة عنيدة، وفم متدل، وعينين ناعستين، وأنف أفطس، لم أبد أي ردة فعل، واكتفيت بالقول:

"هل أعرفك؟"

"الواقع أجل ولا، أنا أعرفك، قرأت لك، وليس محض صدفة، بل بيننا معارف مشتركة، يمكنك القول أننا جيران أيضا"

"لكنني لا أعرفك"

"لم أقل ذلك"

قلت باستياء:

"إذا لم تكن لتقرأ لي لو لم يكن بيننا هذا الذي قلت، معارف مشتركة، ولو لم نكن جيران"

"لم أكن لأعرفك لولا ذلك"

لم يخطر ببالي أبدا أن تسبب لي تلك الكلمات التي قال الإحراج والغضب، لم أفكر طويلا، ثم سألت:

"هل أعجبك ما قرأت؟"

"عظيم" وقام بتقبيل أصابعه كالإيطاليين

"ماذا قرأت؟"

"أربعة كتب إلى حد الآن، أنا ناقد أدبي وسينمائي بالمناسبة" ومد يده للمصافحة، صافحته بدوري.

قال مجددا، وكانت كلماته كلها تنتهي بنفس الصوت والنبرة:

"معرض ممل، لا شيء لنقده، كل شيء سيء"

"كل شيء سيء" كررت ما قاله بعقل مشدوه، واستمر هو في التبسم، فكرت قليلا ثم قلت:

"الفن مرن، هذا ما يبرهنه هذا المعرض، لا بل الفن الحديث سيء"

"هذا فن معاصر، الفن الحديث انتهى زمن السبعينات"

"سيء" قلت بلكنة صارمة

"على العموم؟ لا أعتقد أنني أوافقك الرأي"

"انظر، مجرد زينة فارغة لا ثقل فيها ولا معنى، فوضى بغرض الفوضى، فوضى منظمة، أنه فقط صادم ومثير للحماسة، أشعر بالإحباط لهذا السبب لتعلم"

"الغرض من الفن، ما هو؟" نظر إلي بشكل مباشر وواضح

"لا يمكن لهذا أن يكون سؤالا، لا تخدعني"

"كل هذا الذي ترينه هنا، كل شيء، كل قطعة فنية ولوحة، حتى حذائي وطريقة تلميعه، هي واجهة أخلاقية لصاحبها، تعلم الإنسان التفنن قبل الفلاحة حتى"

"أفكر في الكتابة عن هذا يوما ما"

"إذا أنت حقا تعملين على شيء"

"في الوقت الحالي؟"

"أجل" هز رأسه

"نعم، لا أتوقف أبدا عن الكتابة، لكنها أصبحت ثقيلة علي مؤخرا"

"يحصل ذلك عادة مع كل المؤلفين، والفنانين، يحصل معي أنا شخصيا، أتعرفين يمكنني إيجاد محرر جيد لك"

"أنت بصدد عقد صفقة خاسرة"

"بكل بساطة، أريد أن أقرأ العمل قبل الجميع"

"لم أكتب سوى صفحات قليلة، ولا أظن أنني سأكملها قريبا، أشعر بالاضطراب، والتناقض، كلما كتبت شيئا وجدت نفسي لا أتفق عليه في اليوم التالي، الأمر برمته مرهق ويصيبني بالجنون"

"أفضل الأعمال تصيب أصحابها بالجنون، تينيسي ويليامز كان مجنونا، ربما همنغواي كذلك... من يعرف؟" ثم ضحك ضحكة متقطعة

"جنوني لا يفيد العالم في شيء"

"من يدري؟"

"أنا ادري"

عندما فرغت من تناول الطعام على البوفيه، ومسحت قلبي بحبة برتقال، لمحته قادما، بدأت في رؤية حذائه أولاً، قديم منهك، يمشي الهوينى، خطوات ثقيلة غير مستقرة، وكان عندئذ، الحشد قد انفرط وقل الزوار، نظر إلى عيني مباشرة، ساعدته قامته الطويلة في رؤيتي بشكل كامل، من رأسي إلى حذائي، وضعت قشور البرتقال في جيبي ومشيت نحوه:

"ما كل هذا؟" اخذ صوتي يتردد في المكان الفارغ

"لا تخجليني"

"لم أصدق أنه أنت صاحب المعرض حتى رأيت صورتك"

"صورتي؟"

"أراني إياها رجل ما"

"لست فنانا حتى"

"فما أنت إذن؟"

"إنسان يفضح نفسه بهدف السخرية، نعم أنا أعرض نفسي للسخرية"

"ما هذا العبث؟"

"هل نخوض هذا النقاش هنا؟ لدي مخدع صغير وراء المرسم في الطابق العلوي، يحتوي على شرفتين تطلان على مشهدين متباينين، كلاهما رائع" قال هذا بلهجة لا تقبل الرفض أو الاعتراض

صعدنا السلم نحو العلية، ولم يدر بيننا حديث أثناء ذلك، حتى بلغنا المقصد، ففتح لي باب الشرفة المقوسة المطلة على البحر، وناولني كأساً من الماء، ثم استل سيجارة من فوق المقعد الحديدي الأخضر، وطلب مني ولاعة. قدمتها له ضاحكة وقلت أنّه من السخافة ألا يحمل مدخن شره مثله

ولاعة معه دائما، وقال أنّه يستمر في نسيانها وتضييعها كل الوقت، ثم مال بجذعه نحوي، وقال بصوت مهذب إنّما مرتبك:

"أليس النسيان الخلاص الأعظم للإنسان، مع أنه النقيض للهوية والذكرى، إنه اللاوجود المنطقي الوحيد في الحياة،

وأقول أحيانا أليس كلبي ذاك أكثر سعادة مما أنا عليه؟ أضربه، وأضع له الطعام فيأكل، يعيش ذلك الكائن الساذج حياة بسيطة عذراء، في حين أنني أنا الإنسان الخارق العاقل اعترف أنه ليس من السهل أن أمزّق الأشياء داخلي، وأقتلها، التي أريدها بالذات أن تموت، ولكني عوضا عن ذلك صرت أنسى النظارات فوق رأسي، والحليب على الموقد، وأدخل الغرفة دون أن أتذكر السبب في غالب الأحيان، ألست أنا الإنسان، المخلوق الوحيد الذي يعيش الآنية، والماضي، والمستقبل معا؟ أليس هذا العبء ما يقتلني حقا؟"

ثم قام بزم شفتيه وأطفأ سيجارته قبل أن تنتهي، ونظر إلي في عيني، وقال:

"ماذا عنك، ما رأيك؟"

لم أقل شيئا حينها، كانت في قلبي، تحرقه، عضة الحب، أشعل سيجارة أخرى وقال:

"كما تعرفين، الرأي وسيط ما بين المعرفة والجهل"

"لست أدري، لا افكر في شيء محدد، كلّ شيء متصدع ومفتت وغير مترابط"

"لأنه هكذا عقل المرء"

"ليس تماما، هناك ناس فارغون ولا يفكرون في شيء"

"أنت، أنت تفكرين كرجل"

"أهذا مدح يقصد به ذم؟"

"ليس مدحا، وليس ذما أيضا، بل قصدت أن تفكيرك تفكير رجل نمطي، وليس أسلوب امرأة يمكن أن نقول، أنه تشبيه" قال بأسلوب لبق

سكتت قليلا، ثم قلت:

"تصنيف مجحف ونمطي ومحدود"

"ماذا تعرفين عن الرجال" قال بنبرة حادة

"ما يكفي" وشعرت بالغباء حيال ذلك، فعدلت جلستي ثم أضفت:

"ليس كثيرا جدا، ليس بذلك القدر الذي تظن"

"كما لا أعرف أنا النساء"

"أجل، ممكن"

"ما الذي تعرفينه عن النساء على الأقل"

فكرت قليلا، ثم قلت:

"ليس أكثر منك"

"ما الذي تعرفينه عن الإنسان؟ عن نفسك"

"أن الإنسان هو سلوكه المكرر" شعرت بالغباء فأنا لا أعرف شيئا، حتى عن نفسي

رسم ابتسامة خبيثة على وجهه، ثم قال:

"الرجل هو الإنسان الذي لا يبكي" زم شفتيه، وازدرد ريقه وأردف:

"المرأة، المرأة جدل بيزنطي، والمرأة التي أعرفها هي مكان واحد لا غير، المنفى"

فكرت، وكان التفكير عسيراً، صعباً، تقرفص في زاوية ممسكاً بسيجارة بفمه واضعا يده في ثنية ذراعه، وسكتنا كلانا برهة من الزمن، وأنا الآن لا أريد إلا أن أخلد للنوم، ولكن لا أجيد أن أنام، وقد يموت المرء أثناء ذلك، ولا أريد أن أحمل معي هذا السؤال المبهر:

إذا وضعت أمامي خيارين، إثنين، أن أنسى كل شيء، أم أن أتذكر كل شيء، فما الذي سأختاره؟

الندم لا أريد أن أكبر ومعي هذا الندم يلحقني كأسلاك تغلف منزلاً على وشك الانهيار، وشتان ما بين الندم جراء فعل الأمور، والندم على عدم فعلها. فالأول أهون وأخف تحملاً، أما الثاني، فلا رحمة فيه ولا غفران.

واليأس.. أن تموت يائسا وحائراً ومهرولاً في كل السبل تتخبط هنا وهناك إلى أين؟ إلى كل مكان، في حين أنك لم تتحرك شبراً واحداً بعيداً عنك فلا تتوه ولا تضيع، ولا تجد شيئا ولا شيء يجدك، ولا أريد أن أموت وفي قلبي شيء لم أبح به.

يا إلهي العظيم كم أخاف ذلك...

ومن الحمق أن يسعى الإنسان لأن ينسى، المرء يريد أن ينسى وموجب على التذكر فذلك جلي لا جدل فيه بين عاقلين، يضع أياما ليتذكر أحبابه حين يموتون ويرحلون ويضع الوطن واجبا على أبنائه أن يتذكروا وحين ينسى المرء وتتيبس فيه الحياة التي مضت وتتناثر شذراتها في اللاوعي ماذا يفعل الآن في يومه حين يكون وحيدا مغلفا بجدران ومغلق بسقف ما، وقد يستفزني عقلي في لحظة كهذه بين الحياة والنوم أن أعترف لنفسي وللجميع أن الإنسان حيوان رخوي ساذج لا فرق بينه وبين السلحفاة أو الحلزون، وليس هذا ازدراء لنفسي وللذات الإنسانية، بل أنني ولسوء الحظ أقول أنني مخلوق أحمق جاهل كلما عرف شيئا أجهل آخرا، ولحسنه لا أنكر ذلك البتة، بأي شكل من الأشكال، كالاستشراف والخداع والمراوغة والتزييف، بل أنني في غالب الأحيان يغالبني النعاس والحنين، والخوف، فأدلي لنفسي بما أنا أعرف، حتى لا أخدعها، ولا أنجرف مع التفاهة وحماقة هذا الزمن المخادع، أو أكتب على أوراقي الشائخة، إذ أعتقد بذلك أنني سأعيش حياة أطول من التي أعطاها الله لي، أموت فقط حين تدفنني ذاكرة العالم المريضة بالتناسي.

الفصل 5

"لن أصبر على رؤيتها مجددا" كان قد بذل جهدا كبيرا لرفع رأسه والتحدث إلي

"وما الغاية من الوقت في الحب إذا كان قلب المرء خاليا من الصبر" أجبت

"حسبت أن لا رغبة لي في رؤيتها مجددا، لا أدري"

"كيف ذلك"

"قالت لي أحبك ذات مرة، لم أصدق"

ولكونه أحس بالذنب، سكت قليلا يفكر، ثم أستكمل حديثه

"يميل الإنسان إلى تصديق الأشياء السيئة بدل الجيدة، وإلى الشك دون اليقين"

"لم يكن عليك سوى تقبل الحب"

"في قلبها، ربما، أمّا الذي في قلبي فمتأكد منه"

"لماذا؟"

"أميل إلى الشك في كل شيء، بل أنني لا أصدق شيئا عدا نفسي"

"أتعقد..." سكتت ولم أكمل حديثي

رفع أصبعه يسألني بقية الجواب، فقلت له دون أن أشرح:

"أن تمشي حافيا لمجرد أن شوكة في حذائك لسعتك ذات مرة"

كان يوما متأخرا من أيام الصيف، وكنا في القطار، ولم يكن الجو جيدا، بل كان شديد الحرارة مشبعا بالرطوبة ككل أيام هذه السنة، فالأيام التي يأتي فيها الصيف معتدلا أو دافئا راحت وولت، ولم يكن الجو في القطار أفضل على أي حال، بل كان خانقا ويبعث على الغثيان، الطعام لا يشجع على الأكل، فتركناه في الأكياس البلاستيكية الخاصة بالتعليب، والماء في القارورة التي أحضرت معي صارت بولا من شدة الحر، كان الحوار بيننا قصيرا ولم يتدفق، بل توقف عند بدايته تماما، وإذن؟ كانت الليلة الأولى ليلة كلبة، وحتى أنني لم أنم، جُعت، واضطررت إلى أكل الطعام الذي لم تتقبله معدتي، فتقيأت، ونمت عند مطلع الفجر.

كان كلانا يفكر، لهذا لم نكن نتفق، فثمة حكمة تقول أخوك في الحرفة عدوك، وحين استبد بي القلق والملل، سألته:

"لماذا تأخذني معك"

"لا أحد لي غيرك"

"لماذا أنا"

"لا أحد لي غيرك" كان مصرا

"صحيح، ولكن كان بإمكانك الذهاب بمفردك"

"لم أعد أطيق البقاء وحيدا"

"ليس وحيدا، بل بمفردك"

"أريد أن أراها مجددا، يا ترى كيف أصبحت، هل صار شعرها القصير طويلا، وهل ما زالت تعتني بأسنانها المستوية الرائعة، هل ما زالت رائحتها شهية كما في السابق؟ هل ستتذكرني حتى؟"

"وحده الرب يدري"

"آه لو عرفت أنني خبأت عنها كل شيء، خبأت عنها موتتها وحياتها"

"كيف؟"

"قصة طويلة" قال بتشامخ

"هل تعتقد أنك لن تجدها؟ ألهذا أنت حزين"

"لا، أنا أشعر بالأسى لأنني أحب"

"وما الأمر؟ ما المحزن في حب الأخرين؟ "

"أنت لا تفهمين"

إن ما يبغيه في الواقع هو السؤال، أن أسأله: لماذا تحبها؟ هل لأنها لا تحبك؟ هل تحبها لأنها تحبك؟ وهل كنت لتحبها لو لم تحبك قط؟ وتلك أسئلة عويصة لن يقدر على الإجابة عنها، ولن أقدر أنا على فهمه إذا ما وجد جوابا، حتى وان فهمت، فلا أظن أنني سأقتنع، ففكرة الحب عندي مشوهة

وعوجاء، فحين كانت حياتي جيدة ومطمئنة ظهر الحب هذا، وجعل قلبي شقيا فاسدا وزائفا، يا لها من مزحةٍ قاسية من الرب.

لهذا أظن أنني أفهمه، أفهم إعراضه عن الحب، ومع ذلك، كنت لأسأله:

"لماذا كل هذا الحزن إذا؟ لقد حدث مرة أن أحببت ولم يكن الأمر بذلك السوء"

"أنت لا تفهمين" كرر القول ورفع بصره إلي ثم عاود الانحناء

"أنت تقول هذا كلما وصلنا لهذه النقطة من الحوار، أظن أنك أنت الذي لا تفهم، أخبرني مم أنت خائف هيا" هززت كتفه وذراعه

"لدي خلط في بعض الأمور، أتعرفين حين تدركين أن هناك أمر خاطئا ولكن لا تكتشفين ماهيته؟"

"أجل"

"لا أظن أنه يجب على الرجل أن يحب، بل أن يكون محبوبا" عبس، ومسح على شفتيه المرتخيتين بكرسوعه

"إذا لم يكن هذا يضايقك فأنا لا أقصد التطفل، ما اسمها" قلت ذلك بلكنة تنم عن شفقة، لكنه لم يقل شيئا، وراح يحملق في عيني بأسا حزينا

"ديهيا" ابتسم

"إذن... جميلة ديهيا هذه؟"

"بل رائعة" ابتسم مجددا ابتسامة أوسع

"كيف تبدو؟"

"لطيفة"

"أجل أعرف، كيف تبدو؟"

وضع يده في جيب سرواله، وأخرج محفظة صغيرة بلون بني من الجلد الناعم، تشنشن فيها بضع عملات معدنية ومفاتيح، واستغرق في البحث، ثم أعطاني صورة واحدة، بحجم غلاف كتاب متوسط الحجم، ولأول مرة، ابتسم حتى بانت جميع أسنانه الشبيهة بأسنان النساء

"هذه هي؟" قلت

"أجل"

"جميلة، بل فاتنة"

كان علي قول الحقيقة، الفتاة التي في الصورة، والتي من المفروض أنها ديهيا، حبيبته، كانت مدهشة، ولسبب ما، كان قد راودني شعور خارق بأنني أعرفها، أو أنني قد رأيتها في مكان ما من قبل، كان وجهها مألوفا، لكنني لم أثق في حدسي هذه المرة بالذات، نظرت عبر النافذة المواربة للمقطورة، وأجبرت لإغلاقها بسبب الحر، وبما أنني سكت قليلا، وكان

وجهي بشوشا إنما غير مرتاح، وكان قد لاحظ الجانب المنزعج في وجهي، وكان قد فهم نفسه، فسألني أن ارتاح قليلا، وطلب مني أن آكل وأشرب كلما استطعت، مع ابتسامة في وجهه لم تكن تفارقه، ولم ألاحظ أنه قد كان بهذا القدر من السعادة من قبل، ثم طمأنني:

"إذا واتانا الحظ، إذا لم يكن حظنا عاثرا فسوف نصل اليوم بعد منتصف النهار، أو في المساء عند أسوأ الأحوال"

كان المقعد غير المبطن يصيب عمودي الفقري بالألم الشديد، وكنت أفكر في قرارة نفسي، وأتساءل بين الفينة والأخرى عن سبب تواجدي هنا، وكان موعد الظهيرة قد حل، وزاد ارتفاع درجة الحرارة في المقطورة وشعرت كأنني أجلس على نار حارقة، فالمقاعد المريحة كانت مخصصة فقط للطبقة الغنية، أي لأولئك الذين يدفعون ضعف ما ندفعه نحن.

إذن، لم نكن قد بلغنا وجهتنا بعد، ولم تكن هناك أي علامة على وجود حياة قريبة، لا نبات، لا شجر ولا حجر، ولم يكن ثمة أحد في الخارج. وكان الضوء قد تغير لونه، وتغيرت زاوية سقوطه، وهب نسيم دافئ ندي وخفيف مشبع برائحة البحر القوية، وانتابني شعور مرير وغريب، كالشعور الخاص الذي ينتابك صباحا حين تستيقظ في بلد جديد لا تألفه.

فجأة، بدأت القاطرة في الاهتزاز وارتعشت كراسينا ونحن معها، ولم تكن النافذة في جهتي تفتح بشكل كامل، لكن كان في مقدوري رؤية ما في الخارج، وفيما كان هو يحاول فتح نافذته أيضا، واستطاع بالفعل كسرها

قليلا، رميت قطعة معدنية صغيرة عبرها، وكان في وسع أي شخص يجلس قريبا بما فيه الكفاية أن يلتقط صوت القطعة وهي تهوي إلى الأسفل عميقا جدا، أدركنا حينها أننا بين سماء وأرض، وأنه لا شيء يرفعنا إلا سكة على قطعة جبلية قد تنهار في أي لحظة.

توقف القطار بعد دقائق قليلة، أثار احتمال الانهيار قلقي، وخفت أن أمرا طارئا قد حل، نظرت إليه نظرة سريعة، كان مندهشا بدوره، سألته:

"وصلنا؟"

ازدرد ريقه، وارتجفت تفاحة عنقه صاعدة نازلة:

"علي تفحص الأمر بنفسي"

خرج من مقطورة القيادة السائق، بسترته الرمادية المجعدة، وبنطال موحد اللون، وقميص أبيض تحت حزام يتماشى ولون الحذاء، وقبعة زرقاء مسطحة التاج عريضة الحواف مع حزام أمامي أسود، قد رفعها حين رآنا، ومسح بقطعة قماش رأسه الأصلع.

"أنتما الراكبان الوحيدان في القطار، لا أدري لماذا أذكر هذا لكن رحلات كهذه إلى هذا المكان نادرة ولا تحدث إلّا بالحجز المسبق، على كل، ستنزلان من البوابة الأمامية إلى القارب مباشرة، سيتعين عليكما التجديف إلى آخر البحيرة أي حوالي عشرين دقيقة، لا يمكن بلوغ محطة النهاية بالقطار فالسكة انتهت مع انتهاء اليابسة"

نزلنا في القارب بحذر، كان خشبيا قديما ومهترئاً مصنوعا ربما من خشب الصنوبر، مبقع بدوائر كبيرة من الرطوبة والعفن، المجاديف متآكلة ومتشققة أيضا، طولها حوالي المتر ونصف، عندما أنزلناها في البحيرة، غاصت، وشعرت بمقاومة شديدة من الماء العكر مع كل سحبة، والطحالب التي تجمعت حول نهايات المجاديف أثناء التجديف، نظرت في الماء، لم أتمكن من رؤية القاع بسبب الطمي والقصب، ضربنا ضربة أخرى، صوت الماء والطيور المنزعجة، تحرك القارب بأعجوبة، وتقدمنا، ينبغي أن تكون هناك علامة على وجود يابسة في مكان ما، ولكن، لربع ساعة لم يكن هناك شيء، لا أدري، ربما نحن في الاتجاه الخاطئ.

"حتما نحن في الاتجاه المعاكس" قلت

"لا نحن في الاتجاه الصحيح"

"لا أظن ذلك" توقفت عن التجديف مع عبوس خفيف ونظرة ارتياب

"ما الأمر؟ تابعي التجذيف، سنصل إلى اليابسة في نهاية المطاف" حاول أن يظلل قلقه بنبرة هادئة

أنزلت المجاديف على مضض، ودفعت، ودفعنا، كاد صبري القليل ينفد، لكن قريبا، عن شمالنا، كان ثمة ما يشبه الجزيرة العائمة على بعد ستين مترا، سرّعنا وتيرة التجديف، وسمعت في نفسي ما يشبه اللهاث، الماء حولها نقي وضحل، والغطاء النباتي أكثر كثافة على الرمل الأشقر، رسونا بالقارب على الساحل، الشمس ساطعة، لكنها ليست في ذروتها، كانت هناك هبات

هواء، وصوت طيور، كنت مرهقة، فجلست على أول صخرة قابلت، أبديت عدة ملاحظات حول المكان، والجو، لكنه لم يجد في ثرثرتي ما يثير اهتمامه، بل كان يفكر في شيء أكثر حماسة وإثارة.

كان على وشك قول شيء، قاطعته:

"ما الذي نحن بصدد فعله؟"

"أرجوك..." قال لي

"أخبرني هيا"

"لن تصدقي"

"ربما"

"عديني"

"بماذا؟"

"ألا يخيب ظنك بي"

"لن أعدك قبل أن أعرف"

"سيخيب ظنك، ولن يعود في وسعي احترام نفسي"

نظرت إليه نظرة جانبية متفحصة

"حسنا، ربما... أنا..." كان يتمتم ويتلعثم

"ماذا؟" قاطعته

"سأشتري امرأة"

"من؟"

"ديهيا!"

بين الشجرة والأخرى، مساحة من العشب الأصفر الجاف والحصى اللامع المتناثر، مشينا عبرها، وفي اللحظة التي وضعت قدمي على الأرض، على اليابسة بعيدًا عن الصخرة، انتابني إحساس شنيع. ما الذي أفعله؟ هل سنشتري امرأة حقًا؟ وكيف لي أن أعرف، وأفهم، وقد صدني عن السؤال؟

كنا نتبع الظل، نخفي وجوهنا عن الشمس بوضع أيدينا على جباهنا، يدي الأخرى تتدلى، يمسكني منها أحيانا ليرشدني، فأنا لا أرى شيئا سوى حذائه ذي الرقبة، ولا بد أنه كان حزينا، بل متحمسا، فأنا لا أرى وجهه وبما أنني لا استطيع اختلاس النظر، خمنت، قبضته مشدودة بشكل واضح، الأصابع منحنية نحو راحة اليد، جسمه متيبس ومتصلب وخطوات قدمه قصيرة وغير متساوية، كان يضغط على يدي أحيانا، فنتوقف، عرفت حينها أنه خائف أيضا، ولكل منا شيء يخافه، كما هو الحال مع جميع الخلق، ما الذي يخيفه؟ أن يجدها تنتظره أو ألا يجدها؟ هل نسته يا ترى؟ ستراه، وتقول له "آسفة لم أعرفك، يا ربي كم تغيرت"

وربما لم يتغير، بل هي نفسها تغيرت، ونست، وسترى، كم أنه يكن لها حبا جللا، ولا أقول ذلك من باب الإعجاب والدهشة، بل من باب الشفقة والرأفة، مسكين، إنه يحب، وأنني أتمنى من كل قلبي، ألّا يجن، ولا يموت مهووسا بعسل مسموم.

حسنا، ثمة مفترقات طرق كثيرة، ربما تسعة، سلكنا الطريق الأقرب إلى الحدس، وأعتقد أن هناك دائما سبب يهيج الخاطر، وتستثير له المشاعر، وتميل إليه الغريزة، لا يمكن لحدسي أن يخطئ في موقف كهذا، تشاورنا، أمسكني من كتفي ضاغطا على عنقي بأنامله، ونظر إليّ في عيني، وقال بهدوء:

"اسمعيني، ستختارين أمرا من الأمرين، تذهبين معي، ولا أضمن لك العودة، فلا أدري كيف هي الأمور وكيف ستجري الأحوال، أو أن تختفي عن الأنظار حتى أجلبها ونهرب سويا"

"لماذا؟"

"لماذا ماذا؟"

"أختبأ؟"

"الدخول إلى هنا معيب ومحرم بالنسبة للمرأة، إنها حكر على الحمقى"

"ما الذي سيحدث إذا أنا دخلت"

"في احسن الأحوال تسجنين، الكثير من النساء هنا مسجونات لأسباب لا يصدقها العقل"

"لست يائسة إلى ذلك الحد شكرا"

"لا عليك، ثقي بي"

"أخبرني"

"لدي حل آخر، لا بد من وجود حل" زم شفتيه

"حسن!"

"قصي شعرك، أتعرفين؟ بيني وبينك؟ سيناسبك أكثر"

"لا بد أنك فقدت عقلك، أقص شعري؟ أقص شعري"

"سينمو من جديد إنه شعر، انه فقط بدافع التنكر، لا تريدين الموت صحيح؟ أو ربما تريدين؟ لا أدري"

وأما بالنسبة لرأيي، فلا أدري، هل أريد؟ لا أعتقد، حسن، ما من طريقة أخرى، السكين في جيبي، رغم أنني حاولت رميه مرتين، شرعت في قص الأجزاء السفلية بعنف، ثم تعديله، وكان يساعدني في ذلك، وبعد وقت قصير، صرت أشبه طفلا مراهقا عاقا، إن لم يكن ممسوسا أو مصابا بمرض ما في رأسه.

أثناء ذلك، رأينا ثلاث سيارات مصفحة، مضللة النوافذ، ربما استغرقت حوالي خمس دقائق لتمر بنا، لحقنا بها، قال لي بهدوء:

"لا تقلقي، الآن نحن بحاجة إلى خطة كي ندخل، ربما يكون هذا اليوم الأفضل في حياتي، وربما تنقلب معيشتي رأسا على عقب"

"إنه الحب أليس كذلك؟"

"بلى" هز رأسه

"تفعلينها من أجلي؟"

"بكل سرور" قلت

"لا بأس بك كرجل"

"أشعر أحيانا أنني كذلك"

"رجل؟"

"أجل، رجل"

"بهذه القصة ؟ لا يمكنني ملاحظة الفرق" ابتسم

"هذا ليس لطيفا" ضحكت

سكت قليلا، ثم قال:

"إذا... ندخل كرجلين يبغيان شراء زوجة"

"أجد زوجة جيدة لي" قلت ذلك من باب السخرية

"لا تفكري في ذلك حتى"

مشينا نحو مدخل السوق، الذي هو جزء من المكان الذي يسمى المنفى، كان ثمة رجل عند المدخل، يلبس قميصا من الكتان الخفيف، تفحصنا بعين واحدة، ثم أشاح نظره عنا، فأكملنا المشي نحو المنتصف تماما، الأروقة كثيرة، والرجال أكثر من شعرات الرأس، لكن أين السلعة؟ أين النساء؟ واصلنا المشي.

كانت أضواء الأعمدة قد أشعلت مع أن الليل لم يحل بعد، لم يكن من السهل إيجاد المعابر، وكان المشي أصعب من أي وقت آخر، فعرض الطرق المخصصة للمشاة أقل من خمسة أذرع، ضيقة وملتوية، تتفرع بين مراكز الحراسة وتسمح بمرور شخصين بالكاد جنباً إلى جنب، الأرضية مرصفة بأحجار البازلت الداكن، مستطيلة ومربعة، تتشكل بينها أحيانا ثغرات تبرز فواصلا من الرمل الخشن والطين الجاف، مصقولة بشكل يجعل ضوء الأعمدة ينعكس وينتشر، الجدران المحيطة بمنطقة السوق مصنوعة من الطوب الأحمر القوي، وهي مصممة لمنع أي محاولات هروب، ويبلغ ارتفاعها التقريبي حوالي ثلاثة أمتار، فالزجاج المكسر وأشواك الحديد تعلو هذه الجدران، موزعة بشكل متساوٍ على طولها كاملة . الزجاج المهشم مثبت بقوة، وتلمع أطرافه الحادة تحت أشعة الشمس، بينما الأشواك الحديدية السوداء، الصلبة والمتداخلة، تعد طبقة إضافية من الحماية ضد محاولات التسلق والفرار.

البوابة المؤدية إلى سجن المنفى تقع في منتصف أحد جوانب هذه الجدران، ضخمة ومصنوعة من الحديد الصلب، مطلية باللون الأسود، ويتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجدار بقليل، وتتكون من مصراعين كبيرين يتداخلان مع بعضهما بإحكام عند الإغلاق، مزودين بأقفال ثقيلة وسلاسل حديدية متينة.، أما على جانبي البوابة، يقف حارسان، أحدهما كان مجهزا بسلاح ثقيل، والآخر كان الرجل الذي لمحنا عندما دخلنا، أظنه ما زال يراقب حركتنا.

الأشجار الجانبية متناثرة على طول الطريق، معظمها أشجار سرو ولبخ وعرعر، بارتفاعات مختلفة، جذوعها مستقيمة وقوية، وأوراقها كثيفة، توفر بعض الظل للحراس، الذين يقفون بانتظام عند مداخل المعابر وفي نقاط استراتيجية داخل السوق. يرتدون لباسًا موحدًا، سترات فحمية داكنة تصل إلى منتصف الفخذ، وسراويل قماشية متينة، رؤوسهم مغطاة بقبعات جلدية ذات حواف عريضة لحمايتهم من الشمس، وأحذية جلدية مصقولة وملمعة، إنهم متيقظون للغاية، حيث يقفون بشكل مستقيم وأرجلهم متباعدة قليلًا وأيديهم غالبًا ما تكون متقاطعة على صدورهم أو ممسكة بمقابض أسلحتهم، التي تتنوع بين السيوف القصيرة التي يحملونها من أخامصها والخناجر التي يثبتونها في أحزمة جلدية حول خصورهم، أو العصي الفولاذية التي يحملونها بيد واحدة، جاهزين لاستخدامها عند الحاجة، يتجولون بين الحين والآخر هنا وهناك، محافظين على نظراتهم المتفحصة التي تراقب كل حركة وسكنة، والذين كانوا في الواقع، ربما، يراقبونني.

كيف عرفت ذلك؟ يمكن للإنسان أن يشعر بذلك، طلبت منه أن نتوقف، وبينما نحن واقفان هناك، راقبنا الرجل ذو القميص الكتاني، نفسه الذي رأيته عن المدخل، لم استسغه البتة، اقترب منا وبادرنا بالتحية، ثم اخذ يعدل شعره المسرح بدهان الشعر، كانت ملاحظتي الأولى عنه، أنه لم يكن مسلحا.

وقف أمامي بطريقة تدعوا للشك، قليل من الانحناء في الوركين والكتفين، قال بكياسة:

"مساء الخير، رأيتكما من بعيد ولشدة وسامتكما ظننتكما سجينتين هاربتين" بدا كما لو أنه يريد ممازحتنا، ربما حتى لا نشك في نيته

ابتسمت، وكانت شفتاي تختلجان بخفة، وكان في قلبي قلق، أما هو فكان خائفا أيضا من كشف أمري، ربما يتشمم الحراس المرأة التي أكون، وينتهي بي المطاف في المنفى مجنونة ومنسية، هذا بالضبط ما كنا نفكر فيه.

"بالمناسبة، أين النساء؟" قلت

"آه لم يتم إحضارهن بعد، انتظر يا صاحبي الوسيم خمس دقائق فقط"

"حسن" نظرت إلى ساعتي أراقب الوقت

"تبحث عن واحدة لك؟"

"ربما" خفت أن يكون قد انتبه إلى ساعتي النسائية، خبأتها بكم القميص، الحيطة واجبة، من خاف نجا

"ماذا عن صديقك؟"

"أجل يبحث عن واحدة أيضا"

"هل لديك إحداهن هنا" كان سؤاله مباغتا

"لا ليس تماما، لماذا تظن أن لدي واحدة هنا؟" حاولت الحفاظ على هدوئي

"لا أظن أن شخصا مثلك يريد امرأة مجنونة زوجة له، وبما أن الأمر كما تقول، سأقدم لك نصيحة جيدة أرجو أن تأخذها بعين الاعتبار، لماذا في رأيك يا صديقي؟ هؤلاء النساء بهن مس وجنون، لا تفهمني خطأ أرجوك، لا أريدك أن تخدع "

بصق ونظر خلفه، ثم أضاف:

"الدفعة الأولى وصلت، أرجو ألا تخدعني يا صديقي، فأنت لن تخدع أحدا سوى نفسك" قام برفع يده، ودور بإصبعه السبابة في حركة دائرية قرب جانب رأسه، مشيرا بيده إلى الشاحنة التي أحضرت الدفعة الأولى من النساء، يقصد بأنهن مخبولات.

الشاحنة الكبيرة تتقدم ببطء، وصوت محركها العميق يدوي في الآذان، مرت بنا، تاركة وشحات من الغبار الكثيف في الجو بدت كالسديم الفضائي، توقفت، وتوقف المحرك بصوت خافت، تقدم الحراس وقاموا بفتح الأبواب الخلفية المعدنية، وبعضهم انتظر إشارة من قائد الشاحنة لإنزالهن، قاومن،

تجمهر الرجال بجوار الشاحنة، وكانت نظراتهم شهوانية ومقززة، بينما حاول الحراس منعهم من التجمهر بدروعهم المتينة وبالهراوات التي ضربوا بها بعنف لصد أي محاولات لمس، كانوا مستعدين حتى لرشقهم بالرصاص الحي، كانت الهراوات ترتفع وتهبط، وتصدر أصواتًا مروعة عند ملامستها لأجساد الرجال، لكنهم لم يتراجعوا إلا عندما أخذ أحد الحراس مكانه في المقدمة، ورفع مكبر الصوت ليقرأ قائمة النساء اللواتي تم وضعهن خلف صف من الرجال المدرّعين، أعمارهن، جنسياتهن، والفن الذي تمارسه كل واحدة منهن.

نظر إلي نظرة منكسرة، وقال:

"لا أظن أن ديهيا من بينهن، لم أتعرف على هذه المجموعة"

شعرت بالقيء يرتفع في صدري، وموجات من الغثيان تتصاعد حتى حلقي، كانت معدتي تتلوى، تتقلص وتتوسع، وقلبي ينقبض، كما يفعل حين تنتابني حالات الهيستيريا في الماضي، انتظرنا خلف الجميع ولم نتحرك حتى وصلت الدفعة الثانية، تم إنزالها ولم يتعرف على أي منهن أيضا، فتحتم علينا الانتظار قليلا حتى تصل الدفعة الثالثة، والتي قيل أنها الأخيرة.

تحت وطأة الشمس الحارقة، كان العرق يتصبب مني بغزارة، ولم أكن أدري كم مضى من الوقت، ولا أتذكر كيف انتهى بي المطاف تحت رشاش

النافورة، مددت يدي المرتجفة نحو الماء، أخذت قبضة منه ورششتها على وجهي، ثم أغمست وجهي بالكامل في الحوض أثناء ذلك، انظم إلي وحدجني بنظرة سريعة، رزيّ الهيئة ذليل القعدة، لا يتكلم ولا يجيب، كنا ننتظر على نار من جمر البعثة الأخيرة التي نأمل أن تصل قريبا جدا، ولكننا انتظرنا لأكثر من عشرين دقيقة كاملة، ولم نتحدث قط بخصوص ذلك، بل سألته عشرات المرات حاله ولم أظفر برد، ولو مرة واحدة.

كدنا نيأس لولا الصوت الذي سمعناه في تلك اللحظة، صوت الشاحنة التي تحمل المجموعة الأخيرة، ثم تراءت لنا، فانتفضنا من مكاننا وجرينا نحوها مسرعين، وكنا من فرط الذعر نرتعد أثناء وقوفنا أمام الشاحنة التي فتحت، وتم إنزال النساء، وحتى ذلك الحين، كان يغمره اليأس، وكان يقول لي:

"لا أظن أننا سنجدها"

كانت هناك ثلاث فتيات في مقدمة الطابور وكن ينظرن إلينا بشكل مباشر، الأولى وجهها بريء وملامحه دائرية، مع عيون واسعة ولطيفة، وشعرها طويل ومربوط في ضفيرة بسيطة، والأخرى طولها مثير، وقوامها نحيف ومستقيم، ملامح وجهها ذكورية، حيث كانت عظام وجنتيها بارزة وتفاصيل وجهها دقيقة وشعرها مشذب وقصير، والثالثة ذات قوام ممتلئ،

تتمتع بجسم مستدير مع منحنيات واضحة في مناطق الصدر والخصر وجهها مدور مع خدود ممتلئة، وعينيها كبيرتين وبريئتين.

حين انتبه إلى وجودهن تغيرت ملامح وجهه، وانكمش جسمه، وبدا مترددا في الذهاب إلى تلك الناحية، ربما كان يعرفهن.

لكن لم يكن في مقدورنا الوصول إلى المنطقة التي كنّ فيها، فقد كان المكان محاطا بالكثير من الرجال والحرس، وعند الساعة التاسعة، قبل أن يتم إخلاء الجميع، وقبل أن يتم نقلهن مجددا إلى المنفى، حيث لم تنجح أي واحدة فيهن في الحصول على زوج والمغادرة، تقدمنا منهن، سلم على الفتاة الممتلئة، فيما غادرت الأخريان.

كانت يداه ترتعشان، وكان وجهه أحمرا يكاد ينفجر، نظرت إليه نظرة غاضبة إنما مشفقة، كأنما رأفت على حاله.

"يا إلهي باباس" قال

مررت يديها على شعرها، ثم تجمدت في مكانها كأنما تريد أن تقول شيئا، لكنها لم تفعل.

"هل ديهيا معكن؟"

"كلا" أجابت باقتضاب

انتابه ذعر شديد، لم يقل شيئا

"ماتت، قتلوها"

"قتلوها؟" سألتها

امتخضت أنفها في منديل أبيض، ثم هزت برأسها موافقة، وغادرت.

نظرت إليه، كان يبكي، لقد بكى لأول مرة، لكنه لم يلاحظ ذلك، وعندما كان يبكي، تلمظ بشفتيه شيئا مالحا، فمرر بطنة إصبعه على وجهه، وناح، كان يبدو مبتسما، ولكن بشكل أكثر حزنا، لقد كان يقول:

"أنا رجل يبكي، أنا رجل يبكي"

***